تجليات الثبات، وانكسار الذات
في شعر لسان الدين بن الخطيب

إعـــــداد

د/ منيرة بنت عبد الرحمن الطويان

الأستاذ المساعد بكلية اللغة العربية والدراسات الاجتماعية

بريدة ، جامعة القصيم، المملكة العربية السعودية

تاريخ الاستلام : ٢٤ /١٢/ ٢٠٢٢م

تاريخ القبــول : ٦ / ١ /٢٠٢٣م

ملخص:

يعد لسان الدين بن الخطيب من الشخصيات المهمة في التاريخ الأندلسي، وفي تاريخ مملكة غرناطة على وجه الخصوص، عاش بين عامي (٧١٣-٧٧٦هـ) حياة حافلة بالعطاء والثراء من جهة، وبالنكبات والمنعطفات من جهة أخرى؛ فقد تعرض بين سنتي (٧٦١-٧٦٣) للسجن والنفي إلى المغرب بعد حادثة الانقلاب على الغني بالله، ثم عاد إلى السلطة والمكانة بعد استرداد الملك لعرشه، وبعد عشر سنوات ضيق الخناق عليه وتكالب الحساد والحاقدون ضده؛ فهرب من الأندلس سنة ٧٧٢هـ ولجأ إلى سلاطين المغرب، ولم يتركه أعداؤه حتى زجوه في السجن وقتلوه غيلة رحمه الله وغفر له.

وتتجه هذه الدراسة إلى دراسة تأثير عنف الأزمات ومحاصرة الخوف وفقد الأمان على شعره ومكانته السياسية والاجتماعية، وترصد صدى الانكسار في شعره، وقد وجدت أنه لم يلتفت إلى أعدائه، ولم يخصص أشعارا مستقلة يبث فيها شكواه وحزنه، بل حاول أن يظهر بمظهر القوي الذي لم تحن ظهره صروف الدهر، ثم انكشف انكساره في بعض المواقف الشخصية، وفي المديح، وقصائد المديح النبوي، وجاءت نتائج البحث مؤكدة هذا التمزق والتفاوت في إظهار الضعف والانكسار، كما كشفت عن بعض التغيرات التي انطبعت على شعره ومفرداته بعد تعرضه للأزمات.

الكلمات المفتاحية: الانكسار، التظاهر، الاحتماء، لسان الدين

Abstract:

Lissane Eddine ibn al-Khatib is an important figure of the Andalusian history, and of the history of the Kingdom of Granada particularly , he lived (from 713 to 776 Hijri) a life full of giving and richness on the one hand, , and full of catastrophes and twists on the other hand. In fact, between 761 and 763 Hijri, he was imprisoned and exiled to Morocco after the coup d'état against Al-Ghani bi'llah, then, he returned to power and status after the King's retrieval of his throne. 10 years later, he was caught up and surrounded by envious people; So he escaped from Andalusia in 772 Hijri and took refuge with the Sultans of Morocco. but his enemies did not leave him until they imprisoned him and killed him, may Allah have mercy on him and forgive him.

This study seeks to examine the impact of crisis violence, fear control and insecurity on his poetry and his political and social standing. It sensed the echo of heartbreak in his poetry and found that he did not pay attention to his enemies and did not write special poems to complain and grieve, but rather tried to keep a strong face, that wasn't affected by life conditions. But then, his weakness was exposed in some personal situations, in poems of praise and prophetic praise. Then, the results of the research confirmed this rupture and disparity in showing signs of weakness and heartbreak, and also found some changes that affected his poetry and terms after dealing with crises.

المقدمة:

حوصر لسان الدين بكثرة الحساد والدسائس والوشايات، تنكر الأصدقاء، مصادرة الأموال والممتلكات، والنفي والتغريب، ترك الوطن إلى الأبد، اللجوء السياسي وملاحقة السلطان ومحاصرته، انعدام الأمن ومحاصرة العدو، والشعور بالخطر المحدق، إن واحدة من هذه التجارب كفيلة بأن تقصي الإنسان من الحياة، وتبعده عن أضوائها وبريقها، وتخفيه في غياهب الظلام، راميا نفسه في ظلمات الحزن والقلق.

والدارس لحياة لسان الدين بن الخطيب سيجد حياة صاخبة، لم يذق فيها طعم الهدوء والسكينة، وحرم الشعور بالأمان والطمأنينة والرضا، عاش لاهثا وراء أحلامه، ثم لما تحققت لم يجد راحته فيها؛ فآثر البعد والهدوء ولكن لم يتحقق له ما يريد، وعاش مطاردا حتى مات أسوأ ميتة، رحمه الله.

وهذه الحياة القلقة التي عاشتها هذه الشخصية العظيمة دفعتني إلى البحث في مدى تأثيرها على شعره، وهل كان يضج بالبكاء والضعف وروح الانهزام والتشاؤم، وهل سقط صاحبه فريسة للضعف والانكسار والسأم، وخيبة الأمل والانعزال والخوف والقلق، جراء ما سامه الدهر من محن وما قاساه من خسائر وأزمات، تذيقه صنوف الشقاء والتضييق، سواء أكانت على المستوى الشخصي، أم العام.

فالنصوص الشعرية في الغالب مرتبطة بالوضع النفسي للشاعر، عاكسة ما يشعر به كجزء من مجتمع متكامل، والشاعر الأندلسي بشكل عام لم يغفل عن الحقيقة التي كان يعيشها هو ومجتمعه؛ فجاهر بها عبر أدبه وفكره، وهذا السبب هو الذي جعل الأدب الأندلسي متوهجا على مدى الأيام لصدقه وفاعليته[1]؛ فالإبداع الشعري مرتبط في الغالب بالأجواء المتوترة -كما يرى بعض النقاد- والنص الشعري ينبع من الواقع المأساوي، من لحظة الفقد والتمزق، ثم يستكمل بنيته بطرق

مختلفة[٢]، كما أنه مرتبط بالصراع والتصادم مع الواقع بكل أشكاله[٣]، وصراع لسان الدين مع أعدائه وكارهيه، وصراعه مع الحياة وتقلباتها، وأخيرا صراعه مع ذاته والتصادم بين رغباته وطبيعته؛ كل ذلك خلق مادة شعرية تجلت فيها كل هذه الساحات من الصراعات.

وستبدأ الدراسة بتوطئة تتعمق في محاولات لسان الدين التظاهر بالقوة والتجلد، وتوضيح أسباب ذلك، ومظاهره في شعره، ثم تبدأ بعرض مظاهر الانكسار في شعره في مباحث ثلاثة، هي:

الانكسار في بعض المواقف الذاتية، الانكسار في شعر المديح، الانكسار في شعر المديح النبوي، وبعد ذلك يعرض البحث أهم النتائج التي خرجت بها الدراسة، ثم عرض المصادر والمراجع.

وسينهج هذا البحث المنهج الاجتماعي في تضافره مع المنهج النفسي، منطلقا من نص لسان الدين، وصراعه مع الأعداء ومع الحياة ومع ذاته، والتعمق في قراءة ديوانه ودراسة نفسيته والظروف المحيطة به.

أولا: تجليات الثبات في مواجهة الأزمات في شعر لسان الدين:

عندما نقلب ديوان لسان الدين نجد شخصا يقاوم الانهيار ويرفض السقوط، ونفسا تأبى الانصياع والخنوع لأعدائه، ظل شامخا على الرغم من الأمواج المتلاطمة المحيطة به؛ قويا راسخا رسوخ الجبال، لم تزعزعه الحوادث ولم تغيره صروف الدهر، منذ بداية الدسائس ضده في الأندلس، مرورا بالمنفى الأول بعد الانقلاب ضد سلطانه، ثم الهروب وما حدث بعده، ظل محافظا على تماسكه، لم يسلم نفسه لليأس والخيبة، مستزيداً من الدنيا حريصا على كل ما كان ينعم به.

لماذا ظل لسان الدين متماسكا شامخا حتى وفاته؟

إن الإجابة على هذا التساؤل تستدعي كل معارفنا وخلفياتنا التاريخية حوله، وظروفه السياسية والاجتماعية والمادية، وسبر أغواره النفسية، ومحاولة وضع بعض الاحتمالات استناداً على تلك الخلفيات، وأهمها:

- المكانة الرفيعة التي كان يشغلها في المجتمع الغرناطي على المستوى السياسي والاجتماعي والعلمي، والإنجازات العظيمة التي حققها؛ فلم يكن من السهل التخلي عن كل تلك المنجزات، فضلا عن إرثه السياسي والاجتماعي من أسرته العريقة في ميادين السياسة والعلم والمجتمع.

وتتضح مكانته ودوره السياسي عندما نعود إلى تاريخ مملكة غرناطة ونرى أن الوزارة "هي القاعدة الأولى بعد رئاسة الدولة. فالوزير هو الذي ينوب عن السلطان، وهو الذي يهيمن على شئون الدولة المدنية والاقتصادية والسياسية والعسكرية، إلى جانب إشرافه على الكتابة وديوان الإنشاء..."(٤)؛ فلم يكن لسان الدين وزيرا فحسب، بل كان ذا الوزارتين.

- مكانة ابن الخطيب الرفيعة في المغرب، وهذه المكانة ستخفف من حدة الخوف لديه، وتشكل درع حماية له هناك، وتخفف من إحساسه بالغربة ووطأة الأزمات، يقول محمد عبد الله عنان: "... ولكن ما غمره به السلطان من كرم المثوى، وعلو المكانة، وجزيل العطاء والنعمة، خفف كثيرا من مرارة النفي، وهكذا شعر ابن الخطيب أنه استرد في بلاط المغرب مكانته المفقودة"(٥)، ومكانته تعود أولا إلى مكانته السياسية والعلمية وتقدير الحكام المغاربة له، كما تعود إلى أسباب عامة تتعلق بتقدير حكام المغرب بشكل عام وبني مرين بشكل خاص للأندلسيين عامة، والاستعانة بهم في الميدان السياسي والعسكري والعلمي(٦).

- الكبرياء والاعتزاز بالذات: عدم الرغبة في إظهار التأثر بما فعله الحساد والكارهون، والانهزام أمامهم؛ ولذلك نجد ابن الخطيب يتجاهلهم في شعره، لا

يكاد يلتفت لهم ولا يشتكي منهم ولا مما فعلوه، لا يشتكي من الوحدة وتنكر الأصدقاء، بل هاجمهم هاجيًا لهم بأقذع الهجاء، وفي قصيدته الأخيرة تحدث عنهم شامتا لا شاكيًا، ويلخص ذلك بقوله:

مهما جفاني صاحبٌ في الناس لي سَعَةٌ وفي عَرْض البسِيطة مذهبُ[٧]

لسان الدين ذو الوزارتين صاحب النفس "التي تأبى الضيم والظلم، وهو صاحب الجاه العريض"[٩]، كان دائما يحافظ على رباطة جأشه وتماسكه "ولم يفقد ثقته بنفسه حتى في أقسى أيام محنته"[١٠]، إضافة إلى اعتداده بنفسه، وكان دائما يبدي اعتزازه بمنزلته السياسية، كما كان يبالغ في الاعتزاز بمكانته الأدبية، ويذهب أحيانا إلى حدود العجب والكبر[١١]، والنماذج على ذلك كثيرة، أسوق منها قوله في رسالته الوداعية للغني بالله :"واعلموا أيضا على جهة النصيحة أن ابن الخطيب مشهور في كل قطر، وعند كل ملك...، فإنما كان ابن الخطيب بوطنكم سحابة رحمة نزلت، ثم أقشعت، وتركت الأزاهر تفوح، والمحاسن تلوح، ومثاله معكم مثال المرضعة أرضعت السياسة..."[١٢]؛ فإظهار الضعف يعني الانهزام الذي لن يرضاه الشاعر لنفسه، وتأباه عزته وكرامته، والإنسان بطبعه لا يحب إظهار ضعفه، ويميل إلى المكابرة والتظاهر بالقوة وعدم التأثر، وديوانه مليء بأشعار الفخر والثقة بالنفس، مثل قوله:

وإن عركتْ مني الخطوبُ مجرِّبا نقابا تساوى عنده الحلوُ والمرُّ
فقد عَجَمَتْ عودا صلِيبا على الرَّدى وعزما كما تمضي المهنَّدةُ البترُ[٨]

- وهذا الموقف من ابن الخطيب يعد من الحيل الدفاعية التي سلكها كي لا يسقط في هوة الاغتراب والتراجع والانكسار، وربما كان يقاوم ضعف نفسه، ولا يسمح لها أن تتنازل وتهوي في مدارك الضياع والانحسار، وتعلن الانهزام، ومما يؤيد ذلك أن المتتبع لفلسفته وآرائه يجد أنه كان "مستبشرا متفائلا تذكيه

نفحة صوفية أنارت في ناظريه صفحة الوجود وأشاعت في قلبه برد اليقين...فطفح فؤاد(ه)...أملا في الناس واستيناسا بهم وثقة بمزاياهم وأحس بروح الحرية ينعش روحه ونسيم الاختيار يفسح له ربع الوجود"[١٣]؛ فابن الخطيب لم يكن ممن يميل إلى التشاؤم واليأس والعيش بالظلام وسوء الظن بالناس.

وقد أدت الأزمات المتوالية عليه إلى تنامي شعوره الديني، "فقد تدفع الأزمات والحروب طوائف من الناس نحو الحياة الصوفية التي يجدون في ربعها طمأنينة تغمرهم بزلالها المنعش فتعود الأرواح بعد خلاصها من جلبة العالم وضوضائه إلى سكينتها الفطرية التي تتفتح في بحبوحتها آفاق علوية خلابة..."[١٤]، وهو بذلك يمثل تفاوت مواقف البشر عامة والأندلسيين خاصة، من الأزمات العامة والخاصة؛ بين الإغراق في المسحة الدينية والاندفاع للمجون، واضطراب المشاعر بين التفاؤل تارة، واليأس والتشاؤم تارة أخرى[١٥]، وهذا ما ظهر على شعر لسان الدين؛ فعندما نقرؤه قراءة عجلى نجد ميله إلى الزهد، والنظرة إلى الحياة نظرة المودع غير المكترث بزوال متعها وملذاتها.

١/ الزهد في شعر لسان الدين:

ويتجلى ثبات لسان الدين وتظاهره بالقوة في موقفه من الحياة، ونظرته لمتاعها الزائل؛ فلم يظهر شاكيا حزينا أسفا على ما خسره فيها؛ بل ظهر زاهدا غير مكترث لما أصابه، وكأن توالي الأزمات والخسائر جعله يتعمق في حقيقتها، ويزهد فيها مؤثرا الخلوة والتأليف والعبادة.

وزهد ابن الخطيب وانصرافه عن متاع الحياة من الجوانب التي أفاض الباحثون في الحديث عنها، لما في سيرته من التناقض: بين زهده وانصرافه عن الدنيا ومتاعها، أو تكالبه عليها واستكثاره من المال والممتلكات[١٦]؛ فعندما ننظر ما

فعله في المنفى الأول حينما اعتزل السياسة وآثر سكنى (سلا) حيث الهدوء والتفرغ للتأليف والتأمل على الأضواء والعمل السياسي، ثم ما فعله بعد ذلك من الهروب وترك الساحة الأندلسية، وطلب الخلوة والتفرغ والانقطاع لله، وأيضا عندما نقرأ بعض ما كتبه شعراً ونثراً[١٧]، كل تلك المقومات تعطي ملامح شخصية زاهدة غير مكترثة بنعيم الدنيا، لكننا من جهة أخرى نقرأ أخبارا تتعلق باستئثاره بالسلطة واستبداده، وحبه للمال والاستكثار من الضياع والممتلكات[١٨]،كما أنه كما يقول عنه بعض الباحثين كان إنسانا "متعجرفا تعجبه مظاهر الأبهة ومظاهر الاحترام إلى الجنون، فكل شخص كان يأنس منه بعض ما يغض منه يصب عليه جام غضبه"[١٩]، ونقرأ أشعاراً في تشبثه بالحياة، وحرصه على ألا يفقد شيئا كان يمتلكه؛ فكل ما أصابه لم يكن له تأثير على تمسكه بالحياة ورغبته في التمتع بكل شيء، وعدم التفريط بالجاه والممتلكات حتى في سنواته الأخيرة وقت تضييق الخناق عليه.

وبعيداً عن صدق زهد ابن الخطيب أو زيفه، ننظر للزهد بشكل عام على أنه ردة فعل طبيعية لأي أزمة يمر بها الإنسان، تجعله يهرب من الحياة ويعتزلها؛ مؤثرا العبادة والتأمل عليها، كما أنه حالة طبيعية تمر على أي إنسان في أوقات متفاوتة من حياته، تزيد وتنقص بحسب طبيعة الإنسان ونفسيته وطريقته في التفكير ومعالجة المشكلات، وتزداد بلا شك مع التقدم في العمر.

وأدب لسان الدين بشكل عام تعبير عن روحه كما هو تعبير عن فكره، لذا حفل بالرؤى الدينية التي كانت تلوح عبر أزمته النفسية، وصرح في شعره عن كل ما كانت تجيش به نفسه من هموم دينية، وإذا كان النزوع الديني طابع عصر الغروب في غرناطة، فمن الطبيعي أن يتأثر به لسان الدين، فشعر الزهد لديه مرتبط بالنزعة الدينية الشائعة في العصر آنذاك، وكان لها عنده "شأن عظيم، لأنها ارتبطت بجانب من أعظم جوانبه خصبا، وهو الجانب الروحي"[٢٠]، والوضع الروحي في المغرب والأندلس ساد فيه منذ القرن السادس الهجري "التصوف واتسع نطاقه

الفكري والعملي، وزاد انتشاره في الأوساط الشعبية وأصبح المرجعية الروحية السائدة، ذلك أن التصوف مرتبط بالذوق والأخلاق"[٢١].

وهو أيضا مرتبط بنشأته كارتباطه بظروفه؛ فقد نشأ في وسط موسوم بالوقار والصلاح ونقاء العقيدة؛ فطبعت نفسه منذ الطفولة بالطابع الروحي، ثم نما وترعرع وصار يتجلى في شكل نزوع صوفي[٢٢] تطفح نفسه به عند اشتداد الملمات، وتوالي الأحداث في ميدان السيف والقلم والمؤامرات والانقلابات التي فرقت بينه وبين ذويه، مما جلى النزعة الروحية لديه، وكشف تفاهة متاع الحياة، وانقلب إلى حب علوي تغلغل في قرارة روحه[٢٣]؛ فالأمر لم يقف عند الزهد؛ بل تقمصته حالة من الإدراك الوجداني، كردة فعل طبيعية لما عاشه ابن الخطيب، وما أدركه من تفاهة ما رأى وما سمع، وما خاض فيه، وما ناله من حسد ودسائس؛ فتصوف تصوفا طبيعيا كنتيجة للعمليات المركبة التي مر بها من تقدم في الوعي، وسعة في التجربة، وظهور بعض الحقائق وبعض الثغرات[٢٤]، وقد تنامى شعوره الديني وأثر في شعره وفي نظرته للشعر، وفي نظرته للحياة[٢٥].

يكشف لنا لسان الدين عن خبايا نفسه وما أصابها من فهم للحقيقة، وما وصلت إليه من إدراك في أبيات يقدم لها بقوله: "وقلت في عقب خلوة تكيفت بها النفس، وذهب اللُّبس، والمشكور الله، وهو المؤمل للمزيد من فضله:

إليك مددتُ الكفَّ في كلِّ لَأْواء	ومنك عرفتُ الدَّهر ترديدَ نعماءِ
ويسرْتَني قبل ابتدائي ونشأتي	لشقوة بعدي أو سعادةَ إدنائي
تعاليتَ يا مولاي عن كلِّ مُشْبِه	فيا جلَّ ما طوقتَ من غرِّ آلاءِ[٢٦]

تأمل عميق يعقبه شعور عميق بالخسارة وخيبة الأمل، التجاء إلى الله، يقين بأنه هو الحقيقة الباقية وما عداه زيف وضياع وخسارة وإغراق في الظلام، ونلحظ هنا التأثير الصوفي في استخدام بعض المفردات الصوفية.

ويعبر عن عدم اهتمامه بما يحدث له وبما يخسره: "وأنشدت ابني عبد الله، وقد وصل لزيارتي من الباب السلطاني، حيث جرايته ووظيفته، وانجر حديث ما فقد بغرناطة من شجون الكلام:

يا بنيَّ عبدَ الله احتسابا ... عن أثاثٍ ومنزل وعقارِ
وإن كنتِ قد أصْمَيتِني إذ رمَيتِني ... بسهمكِ فالرَّامي يصيدُ ولا يَدري[٢٧]
كيف يأسى على خسارةِ جزءٍ ... من يرى الكلَّ في سبيل الخَسَارِ
هدفٌ لا تَنِي سهامُ اللَّيالي ... عن سباقٍ تجاهه وبِدَارِ
واحدٌ طائشٌ وثانٍ مُصيب ... ليس يُنْجي منها اشتمالُ حِذَارِ
غيرَ ذي الدَّار صَرِّفِ الهمَّ فيها ... فمُناخُ الرَّحيلِ ليس بدارِ[٢٨]

تتجلى في هذه الأبيات خلاصة تأمله في واقع الحياة، وبعد نظره، وهو السياسي المحنك، صادق الإدراك، "وكان يرى في حوادث الأندلس شبح المستقبل الرهيب واضحا، ويستشف بنافذ بصيرته ما وراء الحجب، من نهاية محتومة لهذا الوطن الذي مزقته الأهواء وأضنته الفتنة، وكان يرى هذا المصير المحزن قبل وقوعه بأكثر من قرن"[٢٩]، وهكذا يستلهم الصبر والقوة من التأمل في واقع الحياة؛ فماذا تعني خسارة بعض المال والممتلكات إزاء خسارة فادحة للوطن، لا شيء يستحق الأسى! كل شيء إلى فناء فلم نحزن على فوات جزء يسير؟ مهما بذلت من جهد وحرصت كل الحرص فلن تخطئك السهام.

ولم يكتف بذلك، بل بدا متقبلا لكل شيء حتى الموت! إنه في حالة انتظار له فما عاد هلعا من الشيب، بل يستقبله بلهفة فاتحا يديه وروحه، ويودع عهد الصبا ويدعو له مستسلما:

تـــبلَّجَ بالشـــبيبة صُـــبْح شَـــيْبي فـــــأدبرَ ليلُهـــــا وولَّـــــى
ولم أســـترْ بـــدُورَ الصُّـــبحِ جهـــلا وهل يَخْفـــى الصَّـــباح إذا تجلَّـــى
لقد كبَحَ المشـــيبُ جمـــوحَ عزمـــي بِعَـــضٍّ لِجَـــام مطيَّتِـــه المحلَّـــى
فيا عهدَ الصِّـــبا ســـرْ فـــي أمـــانٍ ويـــا وردَ الرَّدى أهلا وســـهلا(٣٠)

إنه غير مكترث بزوال الشباب وتبلج الشيب، بعد أن بلغ السأم من الحياة في نفسه مبلغا فما عاد يلتفت لانقضائها، وهو الذي كان يتغنى برجوع الشـــباب ويـــراه أعظم أمنية وأسنى ما يحصل عليه المرء، ونلاحظ في الأبيات وضوح ثقافـــة ابـــن الخطيب اللغوية وقدرته الفنية في استخدام هذه التنوعات اللغوية، والتضادات اللونية في النص الشعري، بين اللون الأبيض والأسود، ودلالة ذلك على التغير والتحول في الحياة؛ فلا شباب إلا ويقفوه المشيب(٣١).

وهذا التظاهر بالثبات من ابن الخطيب لا يحجب عنا ما وراءه، وبخاصة بعد أن تقدم به العمر، وبعد أن قاسى ما قاسى من الفقد والغربة وصنوف الألم؛ فيكـــون الزهد حينها مظهرا من مظاهر الاغتراب الروحي والانفصال عن الحياة والزهد في متاعها الزائل، والسعي إلى خلاص الروح منها لتصل إلى خالقها، ومما يؤيد ذلك أن هذا اللون من الشعر كثر لديه في المرحلة الأخيرة من حياتـــه، مرحلـــة الهـــروب والخوف والتقدم في العمر وفقد زوجته وأم أولاده، والنظرة السوداوية للحياة التـــي تطبع الأشياء بطابعها، وتجعله ينظر للموجودات بمنظاره القاتم؛ فظهر لديه الاعتبار بلباس آخر، ليس لباس المتفكر المتأمل في كنه الحياة وحقائقها المـــرة، بـــل لبـــاس الوحشة والحزن؛ فعندما يمر عند بعض الأماكن تثير في نفســـه البـــؤس والوحـــدة والكآبة؛ فهي مثير يحرك كل ما تراكم داخله من مخاوف الموت والشقاء والضـــياع، تستثير بعض الأماكن كل ما دفن داخله، وكل شعور تجاهله، يقول مقـــدما لأبيـــات كتبها: " وقلت لما دخلت مدينة "مراكش" واعتبرت فيما صار إليه أمرها:

بلـدٌ قـد غـزاه صـرفُ اللَّيـالي وأبـاحَ الحـريمَ منـه مُبِـيحُ
فالَّـذي خَـرَّ مـن بنـاه قتيـلٌ والَّذي قَرّ منه بعـضٌ جـريحُ(٣٢)

رائحة الموت تسيطر على المكان، والفقد يطال الجميع من ملـوك وعـوام، حتى شعر أن المكان يخلو من الحياة:

ساكنُ الدَّار روحُهـا كيـف يبقـى جسدٌ بعـدما تـولَّى الـرُّوحُ؟!(٣٣)

ويتحدث هنا عن مراكش عاصمة المرابطين والموحدين بعد أن زارها "وتفقد معالمها الأثرية، فاعتبر بما صار إليه أمرها، حيـث أهملهـا المرينيـون، فغزتهـا صروف الليالي، وخربت مبانيها، وكانت عالية البنيان، فصيحة اللسان"(٣٤).

ويتكرر الشعور ذاته عندما" دخل مدينة أنفى–وهي الدار البيضاء – مر بها على دار عظيمة تنسب إلى والي جبايتها عبو من بني الترجمان قارون قومه وغنـي صنفه، وكان قد هلك قبل ذلك فقال ابن الخطيب"(٣٥):

قـد مررْنـا بـدارِ عَبُّـو الـوالي وهي ثَكْلى تشكو صروفَ اللَّيـالي
أقصـدتْ ربَّهـا الحـوادثُ لمـا رشـقتْه بصـائباتِ النبـالِ
كـان بـالأمسِ واليـا مسـتطيلا وهو اليـومَ مالـه مـن والـي(٣٦)

لا أظن أن الشاعر هنا يلتمس العظة والعبرة من هذا المشـهد، بقـدر مـا اعتصر الألم نفسه وهي تتيقن بهذه النهاية الحتمية لكل إنسان، وما حدث له بعد ذلك المجد خير برهان.

ويقول معبراً عن تساوي الحياة في نظره وعدم اكتراثه بما قد يصيبه، بعـد أن سكن رملة:

أقمْنـــــا برهـــــةً ثـــــمَّ ارتحلْنـــــا كـــذاك الـــدَّهرُ حـــالا بعـــد حـــالِ
وكـــــلٌّ بدايـــــةٍ إلـــــى انتهـــــاءِ وكـــــلُّ إقامـــــةٍ فـــــإلى ارتحـــــالِ
ومَـــنْ ســـامَ الزَّمـــانَ دوامَ حـــالٍ فقد وقفَ الرَّجاءَ على المحـــالِ(٣٧)

إنه يتحدث عن الموضوع بلا اكتراث؛ فما الجديد في رحلتنا فـــي الحيـــاة، وكأنه قد وطن نفسه على هذه الحقيقة لذا هو في حصانة عن التأثر.

محاور شعره الزهدي:

يدور شعر لسان الدين الزهدي في المحاور الآتية:

حتمية الموت، غرور النفس وانخداعها بالأمل، تقلب الزمان وحكم الـــدهر، عدم جدوى الحزن.

ونلحظ أن هذه المحاور تندرج في مجملها تحت مظلة الاعتبار في المصير، والنظر والتأمل في حقائق الأشياء، وما آلت إليه أحوال الناس والأمم والأشياء، وهذا الاعتبار يكون بالتأمل والتفكر، وما ينتج عنهما من الحكمة والزهد في الحياة، كمـــا أنه مرتبط بالحالة النفسية التي قاساها في مجمل حياته، وبعد هذا الاعتبار يقوم لسان الدين بدور الواعظ، فجاء شعره الزهدي ملتبسا بلباس العبـــرة والعظـــة الموشـــحين بالحكمة والبصيرة النافذة.

ومما لا شك فيه أن ابن الخطيب المفكر العظيم والمؤرخ الكبيـــر صـــاحب الاطلاع والثقافة الواسعة سيكون شعره مرآة تنعكس عليها خلجات نفسه، ونظراتـــه الفلسفية والصوفية في الكون والوجود، ولن يترك أي فرصة ليرسل "الأمثال السيارة ويبث في القارئ إرشادات ونصائح بمناسبة وغير مناسبة ويستخلص من كل حادث تاريخي حكمة ومن كل واقعة وجهة...يتخذ قصائد المديح والذم مطايا للإعراب عن آرائه في أدق المسائل وأهم القضايا"(٣٨).

أ/حتمية الموت:

هذا العزاء الذي تتسلى به النفس البشرية، والمخرج الذي يخفف حدة كبد الحياة داخل كل إنسان، فعلام الحزن على أمر زائل؟ ولم الهلع وكل شيء منته لا محاله؟ بل وما جدوى الفرح والموت ينتظرنا!

والنظرة للموت نظرة أزلية لدى الإنسان الذي يعي محدودية علاقته بالزمان ضمن نقطتي الولادة والموت، واكتشاف حركة الزمان المتجهة نحو الموت، وتأثير ذلك في توليد الخوف لدى الإنسان من الزمان(٣٩).

هكذا يقولها لنا ابن الخطيب مباشرة بدون مقدمات:

هو البَيْنُ حتما لا لعلَّ ولا عسى ... وماذا عسى يُغْني الوَلِيُّ وما عسى(٤٠)

نعم إنه الموت الذي لا يجدي معه التمني ولا الحسرات، كما لا يمكن توقيه مهما أخذت من العدة والعتاد:

نُعِدُّ الرِّماحِ المشرَفِيَّة والقَنَى ... ويَطْرُقُ أمرُ الله من حيث لا نَدْري
هو الدَّهر يجري في البريَّة حكمُه ... فعِزُّ الغِنَى سِيَّان أو ذِلَّةُ الفقرِ
رمى تُبَّعا بالحتفِ قصدا فلم يكن ... لأتْباعِه في ذلك الخَطْبِ من نَصْرِ
وأردى أَنُوشِرْوان كسرى بصرفِه ... كسِيرا ولم يتركْ لقَيْصَرَ من قَصْرِ(٤١)

ونلحظ كيف يركز ابن الخطيب على ضعف الإنسان أمام الموت، وقلة حيلته أمام سطوة الدهر، وهذا المعنى الذي يأتي بصيغ عامة من الحكمة والعظة سيعبر عنه كثيراً عندما يتحدث بصفة ذاتية(٤٢)؛ وسطوة الدهر ذريعة لإظهار الضعف والاحتياج، وسلب الإرادة؛ فلا تجدي الأمنيات، كما لا تجدي القوة والمال والمنعة؛ فالموت يأتي دون مقدمات، ودون اكتراث بما نتخذه من عدة وعتاد؛ بل هو لا يفرق بين فقير وغني؛ ونلحظ هنا كيف يربط ابن الخطيب بين الفقر والذل، وبين العز والغنى، ويلح على ذات المعنى في موضع آخر:

وسِيَّانِ ذُلُّ الفقــرِ أو عِــزَّة الغنــى ومَن أسرعَ السَّيرَ الحثيثَ ومن يُبْطِي
تساوى على وِرْدِ الرَّدَى كــلُّ واردٍ فلم يُغْنِ رَبُّ السَّيف عن رَبَّةالقُرْطِ(٤٣)

لا يكتفي بالمرور البعيد حول هذا المعنى، لا يكتفي بكون حتمية الموت أمرا مفروغا منه، راسخا في أعماقنا لا يستوقف أذهاننا مجرد استيقاف؛ بل يناقشه وكأنه قابل للشك أو النفي؛ إنه حقيقة راسخة في داخلنا؛ إلا أن ابن الخطيــب يــأبى إلا أن يستلهم منه العبر، ويعرضه لنا وكأننا نعرفه للمرة الأولى.

ب/ غرور النفس وانخداعها بالأمل:

يختصر لسان الدين السبب في خسارة الإنسان بطول الأمل وانخداع الــنفس ببريق الدنيا والركون لها؛ فهو سبب الهلاك والضياع:

مــا أَوْبــقَ الأنفــسَ إلَّــا الأمــلُ وهــو غــرورٌ مــا عليــه عَمَــلٌ
يَفْرِضُ منه الشَّخصُ وَهْما مــا لــه حالٌ ولا مــاضٍ ولا مســتقبلُ(٤٤)

يكرر هذا المعنى كثيرا؛ وفيها يظهر الدهر خادعا غــادرا ومــؤثرا علــى الإنسان تأثيراً سلبياً، ولكن دون سطوة وقوة؛ بل باختيار الإنسان ولذلك لا بــد مــن الحذر واليقظة، ويتعمق في طبيعة النفس البشرية؛ فهي تعلم ما ينتظرها، وتعلــم أن الصواب في عدم الركون للدنيا، لكنها تركن لها وتضعف أمــام بريقهــا، وتنخــدع بملذاتها، وكأنها تنسى ما سوف يعقب ذلك، وهو يقوم بدور المتأمل والواعظ، ويلبس لباس الحكمة النافذة، والنابعة من تأمل ونظر.

ويتعجب من حال الإنسان واغتراره بالآمال الخادعة، ويتعمق فــي عــرض جانب الخداع للنفس الإنسانية من ناحية نفسية؛ فيرى أن هذا الخداع خــداع معلــن برضى النفس؛ فهي تعلم أنها منخدعة، ولكنها مستمرة في ذلك:

نبيتُ على عِلْمٍ يقــينٍ مــن الــدَّهرِ ونعلمُ أنَّ الخَلْقَ فــي قبضــةِ القَهْــرِ

ونركنُ للـــدُّنيا اغتـــرارا بلهْوِهـــا وحسبُكَ من يرجو الوفاءَ من الغَـــدْرِ
ونَمْطُلُ بـــالعزمِ الزَّمـــانَ ســـفاهةً فيومٌ إلى يـــومٍ وشَـــهْرٌ إلـــى شـــهرِ
ونُغْري بما يَفْنى المطامعَ والهـــوى ونَرْفُض ما يَبْقى فيا ضَيْعَةَ العُمْرِ![٤٥]

ونلحظ هنا كم التوبيخ الذي تحمله هذه الأبيـــات؛ وصـــف لطبيعـــة الـــنفس الإنسانية التي لا تفتأ تسترسل مع أوهامها، مغترة بلهو الدنيا رافضة للنعـــيم الـــدائم، هذا الاسترسال مع الأفعال التي تحمل روح السخرية من الإصرار والديمومة (نبيت، نعلم، نركن، نمطل، نغري، نرفض) يعبر عنه بصيغة الفاعلين ليشمل توبيخه الجميع بمن فيهم نفسه.

جـ/ تقلب الأيام وحكم الدهر:

خوف الإنسان من الزمان قديم رافقه منذ وطئت قدماه الأرض، ومـــا فتـــئ يحاول الهرب من ربقته ويتخلص من سطوته التي يخافها ويشعر بها[٤٦]، والشعراء بشكل عام يتحدثون دائماً عن تغير الدهر وعدم بقائه على حال واحدة، فهناك تغيرات كثيرة تطرأ وتقوم في معظمها على التناقض بين الحالين.

وابن الخطيب يحذر من هذه التقلبات، وينادي بالتذرع بالصبر؛ فلا أحد يسلم من أن يكتوي بنار الأيام ويعاني تقلباتها:

دنيا خَـــدَعتِ الَّـــذي سَـــفَرْتِ لـــه عن صفحة لم يَجُلْ بهـــا كَـــرَمُ[٤٧]

والزمان مرتبط ارتباطًا قويًا بالحركة والتغير، والإنسان كائن طموح يعـــيش مستقبله أكثر من ماضيه وحاضره، ويسعى دائما إلى الكمال، وهذا يدفعه إلى رفض الزمان، ووصفه بالطيش وبالظلم، ومحاولة البحث عن طرق للتغلب عليه واســـتعادة التوازن النفسي في حال الصدام معه[٤٨].

ومهما طال بك الأمد فنهايتك الهرم:

وَهَبْـــهُ نـــالَ الَّـــذي أراد أَمَـــا بـــين يديـــه المشـــيبُ والهَـــرمُ(٤٩)

ونظرته هذه مرتبطة بالخوف من المستقبل، وهو يختلف عن الخـــوف مـــن الماضي؛ فالماضي واضح، أما المستقبل فمجهول، وكل مجهول مرهوب، فقد يخالف ما نتمناه، وقد يحمل الموت بين طياته، ومن جهة أخرى فالإنسان دائم التفكير فيـــه، والقلق والتوتر منه(٥٠).

د/ عدم جدوى الحزن:

يحذر لسان الدين الإنسان من الاستسلام للحزن واليأس؛ فالكآبة لا تعيد فائتا، ولا تغير من الأمر شيئا، والأولى بالإنسان الرضا والقناعة والتذرع بالصبر والتجلد:

ولِلصَّبْرِ أولى أن يكـــونَ رجوعُنـــا إذا لم نكنْ بالحُزنِ نُرْجعُ فائتـــا(٥١)

نعم إنه فقد الأمل، والخيبة، فلا عودة لما ذهب؛ ولا جدوى ترجى من الحزن فلم الجزع والتحسر؟

ولو كان يُجْدي الحزنُ أو ينفعُ الأسى لمـــا وَجَـــدَتْ أنفاسُـــنا متنَفَّسَـــا(٥٢)

(ولو كان) فلننظر كيف تحمل الواو مع لو معنى الاستبعاد التام، والامتنـــاع الكامل.

وعلى الرغم مما يبدو على الشاعر من قناعة كاملة بعدم جدوى الحزن، وما يظهر عليه من قوة وتسلح بالصبر؛ إلا أنه عندما تدلهم الخطـــوب عليـــه، وتضـــيق فسحة الحياة أمام ناظريه، يخلع رداء الصبر ويتخلى عن ثوب الحكمة ويتراجع عما كان يدعو إليه(٥٣):

وجاشتْ جيوشُ الصَّبرِ والبيْنِ والأسى لديَّ فكان الصَّبرُ أضْـــعَفَها جُنْـــدَا(٥٤)

وهكذا ظهر لنا كيف حاول ابن الخطيب أن يظهر لنا في ديوانه بمظهر من خبر الحياة وتعمق فيها، وشكلت له هذه المعرفة وقاء يبعده عن الضعف والانهزام ويمده بالقوة والجلد؛ فلم يتأثر بما أصابه، ولم ينهزم أمام الأزمات التي خصه الدهر بها، ولبس لباس الحكمة، ونظر للحياة بمنظار الزاهد بنعيم الدنيا، المترقب لمصائبها، وهون عليه ذلك من خلال:

- التحذير من الحياة، وتقلبات الدهر التي لا يسلم منها أحد.
- جموح النفس واغترارها بالنعيم الزائل، مع علمها أنها تعيش في خدعة وأن هذه ليست الحقيقة.
- إدراك حتمية الموت مع الرضا والاستسلام لهذه الحقيقة وترقبها، بل والنظر لها نظرة إيجابية، واستعجال الموت والنظر له على أنه الراحة والنعيم الدائم.

٢/ العزلة:

تجلى ثبات لسان الدين في مظهر آخر إضافة إلى الزهد؛ فقد لجأ إلى العزلة والتخلي عن العمل السياسي وآثر حريته الشخصية، والهدوء والبعد عن الحياة الصاخبة المليئة بالسعايات والوشايات ضده.

وبدأت عنده بوادر العزلة بعد قدومه إلى المغرب مع ملكه المخلوع الغني بالله على السلطان أبي سالم المريني؛ فهذا المصاب الجلل استوقفه وجعله يعيد التفكير: "وتقبض علي وانتهب قليل ما يعلم لي وكثيره، وتافهه وخطيره، وأعمل التدبير في الإراحة مني، والاحتيال في تسبيب هلاكي، مع أن ألطاف الله تعالى لم تخل عني حال الشدة من ترفيل اعتقال، وتخلص جفوة مقال"(٥٥)؛ فذلك الشخص الذي نشأ في قصور غرناطة ودخل الحياة السياسية منذ سن مبكرة، الشاب المتلهف الذي يفيض حماسة واندفاعا، وساعدته الظروف في بداية حياته على تحقيق أهدافه(٥٦).

يحدث له هذا الحادث الذي جعله يعيد ترتيب أوراقه وأولياته؛ وأيقظه من سباته وحرك بعض الحقائق داخل نفسه وكأنه يراها للمرة الأولى(٥٧).

فعندما دخل المغرب كان قد عقد العزم على مفارقة السلطان، على الرغم من أنه قد أرغد عيشه، وأفاض عليه الجرايات، لكن نفسه قد مالت عن ذلك كله، كما يقول: "ثم ترجح لدي السكون إلى العافية، والتمتع بالبقية فجنحت إلى السكنى بمدينة سلا حيث طنبت الحرمة رواقها وأقامت الحسنة بسبب الضريح المقدس أسواقها تجري علي بها النعم، ويظللني المجد والكرم، فلا أعد من عمري إلا أيام مقامي بها وسكناي فيها تفرغا إلى ما أريده من دني وآخرة وعافية شاملة، وجنة عاجلة..."(٥٨)، "فقد عنى له رأي في التزهد والانقطاع إلى الله تعالى واغتنام بقية العمر فيما يعود نفعه في العاجل والآجل ورفض السلطان وأسبابه"(٥٩). واختار سكنى (سلا)، مبتعدا عن صخب السياسة معتزلا ما فيها، ولذلك اختار الإقامة بسلا لكونها أعون له على مراده؛ فتناسب الخلوة(٦٠).

فهذا الانقلاب هو بداية شعور لسان الدين بضرورة تغيير مجرى حياته، كما يتضح في كتاباته التي خلد فيها مشاعره وخطراته ومشاهداته، وكذلك في رحلاته، وخلوته بنفسه ومحاسبته إياها(٦١).

ولم يكن هذا الاعتزال مجرد ردة فعل وقتية زالت بعد الهدوء وفورة المشكلة؛ بل ظل ابن الخطيب على هذا الموقف على الرغم من المحاولات التي بذلها ملوك المغرب(٦٢)، كما ظل عليه حتى بعد أن عاد للسلطة مكرها بعد أن استرد الغني بالله ملكه، وأعاد لسان الدين لسابق عهده، "ولكن عودته إلى الأندلس تعارضت مع ميله للاعتزال والطمأنينة النفسية، وساءت حالته أيضا بعد ما عاناه من الوشايات وما شعر به من كثرة الحساد حوله: "وصرت أنظر إلى الوجوه، فألمح الشر في نظراتها، وأعتبر الكلمات، فأتبين الحسائف في لغاتها والصبغة في كل يوم تستحكم والشر يتضاعف ونعمة الولد تطلق لسان الحسود..."(٦٣)، ويحاول طلب الإذن من

ملكه لزيارة الديار المقدسة ويماطل في الاستجابة لطلبه؛ فتتردى العلاقة بينهما، كما صرح بذلك: "واشتهر عني ما اشتهر من الانقباض عن الخدمة، والتِّيه على السلطان والدولة، والتكبر على أعلى رتب الخدمة، وتطارحت على السلطان في استنجاز وعد الرحلة، ورغبت في تفويت الذمة، ونفرت عن الأندلس بالجملة..."(٦٤).

ولا شك أن خروج لسان الدين يستدعي التوقف والبحث في الأسباب التي جعلته يتخلى عن المنصب والمال والوطن، وربما يتعلق ذلك بأزمة نفسية كانت تعتريه من تألب أعدائه عليه فيظلم عليه الجو ويتوق إلى الفرار لا بغضا ولا ملالا، ولكن عزوفا عمن كان شغلهم الشاغل إيغار القلوب عليه(٦٥).

وبعض الباحثين يربط إصرار لسان الدين على اعتزال العمل السياسي إلى أسباب تتعلق بالزهد(٦٦)، وبالتصوف، وما يتطلبه من التطلع إلى الانعتاق، والتشوف إلى الافتكاك، والتعشق للخلاص(٦٧)، وأنه كان يدافع عن توجهه، ويدعو إلى مذهبه وينصح أصدقائه بذلك(٦٨)؛ فـ"قد اعتراه السأم من ضجة السياسة وضوضائها فعمد إلى هدوء العزلة ينهل من رقراقها فما كان منه إلا أن استساغ طعمها واستمرأ لذاذتها فانقلب الشوق إلى ذوق...!"(٦٩)، وربما يكون هذا هو السبب الذي جعله يصر على العزلة ويحن إليها عندما حرم منها؛ ثم يلوذ بها ويفر من كل شيء إلا إياها.

وربما كانت ردة فعله عنيفة بمنظورنا، ولكن ابن الخطيب خبر الواقع السياسي المحيط به، ولا شك أنه استدعى ردة الفعل القوية هذه؛ فهو يستدعي الخوف والقلق من بطش الحكام(٧٠)، والقرار النهائي باعتزال العمل السياسي والتفرغ للتأليف والخلو بالنفس.

ولا شك أن التخلي عن المناصب والخدمة السلطانية يعكس القوة التي كان يشعر بها لسان الدين، وقدرته على مواجهة السلطان والتعبير صراحة عن عدم احتياجه له، ونجد في ديوانه تعبيراً صريحاً عن اعتزاله الخدمة، واكتفائه من المناصب والنفوذ وعدم الرغبة في الاستزادة: "وقلت أشير إلى زهدي في

خدمة السلطان:

قال لي صاحبي وقد بـــانَ زُهْــدي عنــــدما أمَّـــلَ الهُمَـــامُ العَميـــدُ
لـــم أعرضْـــتَ واســـتهنْتَ بهـــذا قلتُ أغنـــاني الغنـــيُّ الحميـــدُ"[٧١]

وذلك بلا شك يكشف لنا الملل والسأم والضجر الـــذي يعانيـــه مـــن الجـــو السياسي، أكثر من كونه يدل على الاكتفاء المادي.

وأقوى من ذلك قوله في الديوان مقدما لـــبعض الأبيـــات: " وقلـــت أيضـــا، والإشارة إلى السلطان الغني بالله رضي الله عنه:

يا من دعاني إلى رِفْدٍ يجود به الـــ ـــــغــــنيُّ بالله مُـــؤْتَمّا بمذهبـــه
حاشا وكلَّا لمثلي يـــا صـــديقي أن يَنْسَى الغنيَّ ويَسْتَجدي الغنيَّ بـــه"[٧٢]

ونحس هنا بروح الاستخفاف بالغني بالله[٧٣]، وأنه مكتف بالله سبحانه وتعالى ورفده.

ويطلقها صريحة مدوية:

قـــالوا لخِدْمتـــه دعـــاك محمَّـــدٌ فكَرِهْتَهـــا وزَهِـــدْتَ فـــي التَّنويـــهِ
فـــأجبتُهم أنـــا والمهـــيمنِ كـــارهٌ في خدمةِ المـــولى محـــبٌّ فيـــهِ[٧٤]

ولم يكن ذلك مقتصرا على خدمة الغني بالله، بل استمر رافضـــا المناصـــب السياسية التي عرضها عليه سلاطين المغرب[٧٥]، ورآه بعض الباحثين مظهرا مـــن مظاهر التعالي لدى ابن الخطيب[٧٦]، غير أن المتتبع لسيرة لسان الدين وما كتبه من نثر وشعر يرجح أن هذا الرفض يندرج تحت رحلته نحـــو الاعتـــزال والتصـــوف، والتقرب لله سبحانه؛ فبالنظر في مفاهيم الفناء الصوفي في عالم الذات العارفة بـــالله نجد أن الرحلة تبدأ بمبدأ التخلي، ثم التحلي، وأخيرا التجلي[٧٧]، فكان هذا التخلي أول خطوات لسان الدين للدخول في التصوف.

ثانيًا: تجليات الانكسار في شعر لسان الدين:

المتصفح لديوان لسان الدين يجد أنه يمثل الإنسان بشكل عام، والأندلسي بشكل خاص؛ فقد طبعت شخصيته "بطابع القلق والاضطراب وعدم الاستقرار نتيجة لقسوة الحياة، وتنازع الطوائف، وشيوع الفتن وكثرة الحروب"(٧٨)، وفي عصره ساد الملل من تقلبات السياسة وغوائل الحروب والتضارب على المادة والمتاع الزائل حتى ود كثيرون لو أتيح لهم الانطواء والانزواء فرارا من الفتن المتوالية، ولاشك أن النفس في هذه الحالات تكون سلسة القياد للنزوع الفطري السليم(٧٩)، إضافة إلى التردد بين البقاء والرحيل؛ فبعضهم يرى أن من الضعف بقاءه في الأندلس، وبعضهم يرى أن الابتعاد مأساة تزيد من مآسيه ومعاناته الداخلية(٨٠)، وهذه الظاهرة حدت بالكثير من علماء الأندلس وأدبائها إلى الهجرة نحو المشرق بحثا عن واقع أفضل، أو هربا من ضغط الظروف، أو لأنهم شعروا بأن الأندلس لم تعد مكانا مناسبا لهم، والبحث عن مكان يقدرهم ويقدر علمهم(٨١)، وتأثير الظروف يتضاعف في شخصية المفكر، التي كانت تتنازعها أمور عدة، ولدت لديه القلق والاضطراب، وكان الألم هو النتيجة الحتمية(٨٢)، والمتأمل للإنتاج الفكري لابن الخطيب، يرى مدى التجاوب الحاصل بين فكره ونفسه ولسانه، فما ينتجه لا يعدو أن يكون صورةً لما تبعثه روحه من مشاعر وانفعال، ولعل الإنتاج الأدبي بشقيه النثري والشعري أقرب مثال لوضوح الرؤية بالنسبة لنفسية ابن الخطيب(٨٣).

وعندما نبحث عن تجليات الانكسار والحزن في شعر لسان الدين نجد أنه يتلون بأكثر من صورة؛ فيأتي مرة للتنفيس والتعبير عن الحزن والضعف في مواقف معينة، وفي مواضع أخرى يظهر ضعفه وقلة حيلته كي يحقق بعض الأهداف ويلجأ لمن يغير حاله، يلوذ بشكواه للسلاطين والملوك لاجئًا خائفًا فاقداً كل شيء، ومرات أخرى يتخذه مطية للهروب والالتجاء لله ولرسوله ويحتمي بحمى الدين والغيبيات.

وستعرض الدراسة تجليات الانكسار في ديوان لسان الدين على النحو الآتي:

الانكسار في المواقف الذاتية، الانكسار في شعر المديح (الاحتماء السياسي)[٨٤]، الانكسار في شعر المديح النبوي (الاحتماء الديني).

١/ الانكسار في المواقف الذاتية:

القصائد التي خصصها ابن الخطيب لبث أحزانه والتنفيس عما يكابده قليلة جدا إذا قيست بالحزن المبثوث في قصائد المديح العام أو المديح النبوي، وإذا قيست بحجم النكبات والمواقف الصعبة التي مر بها؛ غير أن هذه الأشعار على الرغم من قلتها فإنها تفيض حسرة وحزنا يعتصر القلب، وتظهر شخصا ضعيفا متألما ذا نفس مرهفة وقلب رقيق مثقل لا يستطيع احتمال فقد الأحبة وتقلبات الدهر.

وفي هذه الأشعار يجلي لسان الدين نظرته الأخرى للحياة وموقفه السلبي منها؛ ويظهر لنا وجها حزينا متألما؛ خلع فيه عباءة الحكمة وتخلى عن التجلد وثوب الوقار والقوة المصطنعة، وتصدعت الأقنعة التي طالما اختفى وراءها.

وأهم المواقف التي أجبرت لسان الدين على الانكشاف والانهزام: الفقد، وكذلك تنكر الوطن والأصدقاء له.

١. الفقد:

فقد الأحبة بالفراق أو بالموت يزيح أستار القوة عن لسان الدين، ويجعله يخضع لأحزانه وآلامه، يفقد فيها تجلده وصبره ويظهر مشاعره وألمه، لننظر هذه الأبيات التي قالها بعد ذهاب ابنه للخدمة في فاس، وبقي هو في (سلا)، بعيدا عن الخدمة السلطانية، ويقدم لها بقوله: "وقلت وقد انصرف عني الولد إلى مدينة "فاس" لإقامة رسمه من الخدمة، وأشجاني انصرافه لوقوع قرحه على قرح، والله المستعان:

بانَ يــومَ الخمــيسِ قُــرّةُ عينــي ... حَسْـــبيَ اللهُ أيَّ موقـــفِ بـــينِ
لو جنى موقفُ النَّوى حــينَ حــيٍّ ... كـــان يـــومُ الـــوداع والله حَيْنـــي
ضايقتْني صُرُوفُ هــذي اللَّيــالي ... وأطالــتْ هَمِّــي وأَلْــوَتْ بِــدَيْني
وطـــنٌ نـــازِحٌ وشَـــمْلٌ شَـــتِيتٌ ... كيــف يَبْقَــى مُعَــذَّبٌ بعــد ذَيْــنِ
يا إلاهــي أدركْ بلُطفِــك ضَــعْفي ... إنَّ مـــا أشـــتكيه لـــيس بهَـــيْنِ"(٨٥)

لم يحتمل فراق ابنه، أشجاه هذا الموقف وفطر قلبه، حتى بدأت تنهال عليه الأحزان دفعة واحدة، ويمر عليه شريط الأحداث، ويشجيه كل ما حدث له، وكأنه يقول إن تكالب الآلام جعله غير قادر على احتمال فراق ابنه، ويركز في مفرداته على ألفاظ البين والنوى والوداع، ويرمي بالعبء على الليالي التي ضايقته ولم يمتلك حيلة منها، حتى يصل به إلى الانهيار واللجوء إلى الله؛ فلم يعد له من وسيلة سوى لطف الله؛ فقد اجتمع عليه فقد الوطن وتشتت شمل الأهل؛ فمن أين له من قوة يكافح فيها ويستطيع التماسك والتجلد؟

وهكذا تواردت عليه آلامه، ونلحظ كيف يركز على فقد الوطن؛ فاجتمعت عليه حرقتان: الوطن والأهل؛ فكيف له بالبقاء، إنه الموت.

ومن أرق أشعار ابن الخطيب وأكثرها حزنا قصيدته التي كتبها متشوقا لأهله وولده، وأرسلها إلى مدينة "سلا"، ويبدو أنه كتبها في سنواته الأخيرة بعدما ابتعد عن سلا ولم يستطع العودة لها مرة أخرى، وفيها تنهال الذكريات الموجعة لأيامه الجميلة هناك، كما تظهر فيها أندلسيته في موسيقاه العذبة وتغنيه بالطبيعة بطريقة معجبة، كما تظهر فيها رياح المشرق ومفردات الغزل العذري:

خَــدَعَ الشَّــوقُ فــؤادي فانخــدعْ ... أفـــلا أَقْصَـــرَ شـــيئا وارتـــدعْ
ثمَّ لمــا حــلَّ فــي فــخِّ الهــوى ... طَيْـــرُه بعـــد حِـــذارٍ ووقَـــعْ
قــيَّضَ اللهُ لـــه يـــومَ النَّـــوى ... أشْعَلَ النَّارَ به حتَّــى انصَــدَعْ(٨٦)

من أعذب قصائد لسان الدين، وأجملها، إذ صور وطأة البعد والشوق وقد أخذت منه كل مأخذ؛ خدعه قلبه وأخلق صبره، وعبث به يوم النوى، هكذا تبدأ مقدمة القصيدة عذوبة ورقة، وموسيقية تساوقت معها الكلمات فشعرت بخفق الشاعر وكمده ولوعته:

يا نسيمَ الرِّيحِ إن جئتِ الحِمَى ... بعدما طَبَّق غيمٌ وارتفعْ
وتلوَّمَتْ بأكنافِ"سَلَا" ... ترفَعُ الدَّوْحَ قليلا وتَضَعْ
قلْ لوادي الغَبْطِ هل من عودةٍ ... يصِلُ الأنْسُ لديها ما قَطَعْ[٨٧]

نداء مستغيث، نداء يفيض رقة وشوقا، يتبعه باستفهام وتمن للعودة بعيدة المنال، ويستمر مسترسلا مع شعوره وذكرياته، يتذكر أوديتها ومعالمها يتعلق بأي قشة، يتذكر تفاصيل يسيرة، تضاعف وجعه، وتنهال معها آلامه وأحزانه، حتى يصل إلى قبر زوجه؛ فتبدأ رحلة شعورية غائرة في الوجع، نكثت ما اندمل منه؛ فانهالت ألما وشوقا وحبا وذكرى مؤلمة ودعاء ومديحا:

وعلى الملْحَد من شَرْقِيِّه ... رحمةُ اللهِ فكم فَضْلٍ جَمَعْ
فيه أوْدَعْتُ فؤادي في الثَّرَى ... ولَبِسْتُ الحُزْنَ ثوبا لو نَفَعْ
إن سلا قلبي من بعدِ "سلا" ... فإلى الغَدْرِ بلا شكَّ نَزَعْ[٨٨]

هكذا كان لسان الدين ضعيفا أمام الفرقة والبعد، وعندما يتعمق هذا الفراق بالموت؛ فإن الضعف يكون أقوى، والتجربة الأولى التي ذاق فيها مرارة موت الأحبة وتجلى فيها انكساره وضعفه كانت ما حدث له في موقعة (طريف) الشهيرة من فقد أبيه وأخيه:

وافيتَ والدُّنيا عليَّ كأنَّها ... سَمُّ الخِيَاطِ وطِرْفُ صَبْري قد كَبَا
والدَّهر قد كشف القِنَاع فلم يدع ... لي عُدَّةً للرَّوْعِ إلا أذْهَبَا[٨٩]

يعلن انهزامه وعجزه عن الصبر؛ والدهر هنا بطل المشهد؛ فكلما توارى الصبر والقوة كان الدهر بسطوته وجبروته وراء ذلك، ويتعاظم الأمر في نفسه حتى ليشعر بأن حزنه لا يسعه الفضاء ولا تعبر عنه أي لغة:

خَطْبٌ تأَوَّبَني يَضيق لهَوْله ... رَحْبُ الفضا وتَهِي لموقعه الرُّبَا
لو كان بالورْقِ الصَّوادِح في الدُّجى ... ما بي لَعَاقَ الوُرْقَ عن أن تَنْدُبَا(٩٠)

ويعلن عدم رغبته بالحياة، واستعجال الموت ويرى فيه الراحة والشيء المنتظر والمنقذ الذي سيخرجه من هذا المأزق:

لا حُسْنَ للدُّنيا لديَّ ولا أرى ... في العيش بعد أبي وصِنْوي مَأْرَبَا
لولا التَّعلُّلُ بالرَّحيلِ وأنَّنا ... نُنْضِي من الأعمارِ فيها مَرْكَبَا(٩١)

هكذا أوصله اليأس إلى فقد الرغبة في الحياة، وجعله يشعر أن لا فائدة من شيء؛ فهو في حالة انتظار للرحيل واللحاق بأحبابه، وتتزاحم في قصيدته مفردات الحزن والكرب والتشاؤم واليأس تعكس نفسا لا تقوى على الفراق ولا تحتمل الفقد.

أما التجربة الثانية فكانت أقسى من الأولى، ليس لأن الفقيد أكثر أهمية من أبيه وأخيه؛ بل للظروف المصاحبة لوفاة زوجه؛ إذ اجتمع عليه ألم الفراق مع ألم الغربة على النحو الذي صرح به: "وفاة أم الولد عن أصاغر زغب الحواصل بين ذكران وإناث في بلد الغربة وتحت سرادق الوحشة ودون أذيال النكبة:

رَوَّعَ بَالِي وَهَاجَ بَلْبَالِي ... وسَامَني الثُّكْلَ بعدَ إقبالِ
ذخيرتي حينَ خانني زمني ... وعُدَّتي في اشتدادِ أهْوَالِ
حَفَرْتُ في دَارِيَ الضَّريحَ لها ... تعلُّلا بالمحال في الحالِ
وغِبْطَةٌ تُوهِم المُقَامَ معي ... وكيف لي بعدها بإمْهَالِ"(٩٢)

لا يضع لسان الدين أي حجاب يحجب حزنه الشديد وتألمه، وانكساره بفقدها، والفراغ الذي تركه رحيلها، "وهي من القصائد النادرة التي تصوّر الزوجة شريكةً حقيقية للرجل، فإذا رحلت رحل نصفُ حياته"(٩٣)، يحملنا معه فنتألم لألمه، ونشعر به وهو يخدع نفسه بقرب قبرها، يكشف عمق الوجع وعظم المصاب، وبلغ اليأس منه مبلغا بعيدا، لذلك يتلهف للموت ويشعر بقربه:

أمَّا وقد غاب في تُرَابِ (سلا) وجهُكِ عنِّي فلسْتُ بالسَّالي
واللهِ حُزْني لا كان بَعْدُ على ذاك الشَّبابِ الجديدِ بالبَالِي
فانتظريني فالشَّوقُ يُقْلِقُني ويقْتَضي سُرْعتي وإعْجالِي
ومَهِّدِي لي لديكِ مضْطَجَعَا فعنْ قريبٍ يكونُ تَرْحَالِي(٩٤)

ويشعر بدنو أجله، ولعله يتمناه بعد أن فقد جدوى الحياة، وأيقن أن راحته في الموت والانتهاء من هذا العذاب الذي يقاسيه؛ فيخاطبها بقرب اللقاء، ويعدها أن يكون مضطجعه بالقرب منها، "أتراهُ أنجز وعده حين جاز المضيقَ بعد عشر سنوات، ليُدفن معها في تربة المغرب؟ لكنّ القدر حال بينهما شيئًا، فدُفنت في سلا، ودُفن في فاس"(٩٥).

وربما كان لوفاة زوجته أثر عميق في اتجاهه الروحي، وإثارة النزوع إلى العشق الإلهي، والتوجه الصوفي، والبيتان اللذان ختم فيهما قصيدته يعبران عن "شوق صوفي إلى الموت لحاقا بالحبيبة"(٩٦).

فقد الذات:

ولا شك أن كل الأقنعة ستتهاوى عندما يكون الفقد مرتبطا بالذات، عندما تحاصره رائحة الموت؛ وتخنقه، في المحطة الأخيرة في حياته، ينتهي النضال وتحط الحرب أوزارها، نهاية الحكاية يراها بعينيه، يتراءى أمامه شخص أمضى ثلاثا

وستين من السنين في لهاث دائم، وبناء مستمر، يحارب هنا ويصارع هناك، بين انتصارات وانهزامات بين بريق وشهرة، بين مال وجاه، بين فرح وحزن، شخص لم يهدأ يوما ولم يرض بالقليل مرة، كان كل يوم في حياته يصعد سلما في مراتب المجد والعطاء.

كان مثالا للحيوية والنشاط دؤوبا على العمل لا يقر له قرار، لم تشغله متاعب الوزارة عن التأليف، رجل زج نفسه في حياة السياسة الصاخبة، صاحب النفس الطموحة والحماسة الفياضة والعمل الموصول، وما ذلك الأرق الذي عانى منه طوال حياته إلا مظهر من مظاهر حيويته واتصال حلقات تفكيره(٩٧).

أي نهاية لرجل لم يهدأ يوما، يجري حد اللهاث وفجأة يتوقف كل شيء!

هل لنا أن نتصور ماذا سيحدث، كيف سيكون عندما يتوقف كل شيء، كيف ستكون النهاية وهو يشاهدها بعينيه؟ لا أحد يستطيع تحمل مشهد النهاية لغيره، لحظة الموت لآخر، فما بالنا عندما تكون هذه اللحظة للشخص ذاته! وما بالنا عندما يكون هذا الشخص بشموخ ابن الخطيب وعظمته.

ماذا سيفعل هذا الشخص المناضل الذي لا يعرف التراجع ولا الانهزام، لا يجيد التوقف ولا التقاط الأنفاس، ماذا سيفعل ذو العمرين بل الأعمار العديدة إذا كانت الأعمار تقاس بالعطاء والإنتاج، كيف سيعترف بالانهزام والخسارة، كيف سيخاطب أعداءه بعد أن تجاهلهم كل سنوات الصراع معهم.

كان إحساسه بالموت قويا للدرجة التي جعلتنا نشعر أن كاتب هذه الأبيات شخص ميت بالفعل، ويرسل أبياته من القبر:

بَعُدْنَا وإن جاورتْنا البُيُوتْ ... وجِئْنا بوعظٍ ونحن صُمُوتْ
وأنفاسُنا سَكَتَتْ دَفْعَةً ... كجَهْرِ الصَّلاةِ تلاه القُنُوتْ(٩٨)

لحظات الصمت المخيفة أمام جبروت الموت، هكذا يأتي الموت فجأة بدون مقدمات، وعندما يحضر يتوارى كل شيء، تنساب موسيقى الأبيات مع مفرداته وكأنها أجراس تدق وتتوقف فجأة لتنبهك أن النهاية قد أزفت، وما عاد للأشياء قيمة؛ حتى الكلام توقف للأبد، ثم يتوقف برهة ليمر أمامه شريط حياته كاملا؛ بكل تناقضاته وتحولاته:

وكنَّا عظاما فصِرْنَا عظاما ... وكنَّا نَقُوتُ فَهَا نحن قُوتْ
وكنَّا شموسَ سماءِ العُلَى ... غَرَبْن فنَاحَتْ عليها البُيُوتْ
فكم جَدَّلَتْ ذا الحُسَام الظُّبَى ... وذا البَخْتِ كم خَذَلَتْه البُخُوتْ
وكم سِيقَ للقبر في خِرْقَةٍ ... فتى مُلِئتْ مِنْ كُسَاهُ التُّخُوتْ(٩٩)

يتأمل بخيبة أمل، تمر أمامه أيامه بعزها ومجدها، والآن غرب كل شيء، يعود للحكمة والتأمل، لم يعد متشبثا بالحياة وكل أمل فيها قد انقضى، الاستسلام للنهاية الحتمية، سلم أمره لله وقد تيقن مما ينتظره، يلقي الراية وقد بان له زيفها، لكنه يلقيها دون ضعف، يواجه مصيره دون انكسار، تظل كبرياء نفسه وشموخه أمام أعدائه، يظل واقفا وهو أمام سطوتين: سطوة الموت، وسطوة الهزيمة وانتصار الأعداء، تجاهل أعداءه وسخر منهم وأغاظهم وأفسد فرحة الانتصار في نفوسهم:

فقُلْ للعِدا ذهبَ ابنُ الخطيب ... وفاتَ ومَنْ ذا الَّذي لا يفوتْ
فمَنْ كان يفرحُ منكم له ... فقُلْ يفرحُ اليوم مَنْ لا يموتْ(١٠٠)

يقدم هذه المفارقة العجيبة لحاله ويلح عليها وكأنه يمعن في إيلامهم؛ هكذا كنت وهكذا ستكونون أنتم أيضا!

إنه الاستسلام ورفع راية النهاية والانهزام؛ إنه الألم المدوي الذي من شدته وعظمته لا يقوى صاحبه على الصراخ والاعتراض، لا يملك إلا الاعتراف بالنهاية وسقوط كل الأقنعة والتسليم بالنهاية المفجعة، ونلحظ إصراره في كل الأبيات على

صيغة الفعل الماضي وما توحي به من شعوره الحقيقي بالموت، وكأنه قد حدث بالفعل، كما نلحظ تأثير الموسيقى في هذه القصيدة، واختياره للروي الساكن، وكأنه "كان في نزعه الأخير وهو ينطق بتلك الكلمات الحزينة الباكية التي ينعى بها نفسه بعد أن أيقن بسوء مصيره"(١٠١).

٢. تنكر الوطن والأصدقاء:

الوطن:

يمثل الوطن معادلة متضاربة في وجدان ابن الخطيب وفي حياته وواقعه، بين ما يقوله وما يفعله؛ مما أدى لبعض الاختلاف في آراء المؤرخين؛ فرمي مرة بعدم الولاء لوطنه على حساب المغرب(١٠٢)، ودافع عنه آخرون، ورأوا أنه كان مشبعا بروح الوطنية ولم يؤثر مملكة بني مرين على ربوع الأندلس، ولم يهجرها مختارا، بل أجبره على ذلك توالي الوشايات والدسائس(١٠٣).

أما المتصفح لديوان لسان الدين فسوف يجد عاشقا متيما بوطنه، سيجده مشوقا محبا، معاتبا طالبا الوصل، سيجد ألوانا من الحب والشوق تارة، والعتب تارة أخرى، والغضب والسخط تارة ثالثة، روح الأندلسي العاشق لوطنه المتيم به، الذي كان انتماؤه وحبه مقدما على كل شيء، وفي ذلك رد على كل من يقدح بوطنيته وانتمائه لغرناطة.

يزجيه أخلص الحب وكأنه محبوبته الفاتنة:

أحبُّكِ يا مَغنَى الجَلَال بواجبٍ ... وأقطعُ في أوصافِك الغُرِّ أوقاتي
تقسَّمَ منك التُّربَ قومي وجِيرَتي ... ففي الظَّهْرِأحيائي وفي البَطْنِ أمواتي(١٠٤)

ما أجمل هذه الصورة! تجسد حبه لوطنه بهذا التداخل بين الأهل والوطن؛ فكلاهما في النهاية صورة لشيء واحد، وفي شعره عامة يتداخل الاثنان؛ ويترادفان بطريقة مبدعة ليؤدي كل واحد منهما للآخر؛ فالوطن والأهل والأحباب هي مسميات

لشيء واحد، وحبهم متداخل كما يقول هنا متشوقا:

مـــن لطَرْفـــي بنَظْـــرةٍ ولأِنْفـــي ... في رُبَاهـــا وفـــي ثَرَاهـــا بِشَـــمَّةْ
وَطَـــنٌ قـــد نَضَـــيتُ فيـــه شَـــبابا ... لـــم تُـــدَنِّسْ منـــه البُـــرُودَ مَذَمَّـــه
بِنْتُ عنه والنَّفسُ من أَجْلِ من قـــد ... خَلَّفْتُـــــه خلاَلَـــــه مُغْتَمَّـــــه(١٠٥)

وعندما يرحل عن وطنه مكرها يخاطبه معتذراً:

أمـــوطني الَّـــذي أُزْعِجـــتُ عنـــه ... ولـــــم أرْزَأْ بـــــه مـــــالا ولا دَمْ
لئن أُزْعِجت عنـــك بغيـــر قَصْـــدٍ ... فقبْلـــي فـــارقَ الفـــردوسَ آدمْ(١٠٦)

اعتذار رقيق يشف الحزن والألم الذي خلفه الرحيل في نفسه، كمـــا يحمـــل الحب لهذا الوطن، بل لهذه الجنة التي فارقها مزعجا عنها لا مختارا.

ويشتاق الغني بالله للديار؛ فيكتب لسان الدين على لسانه قصيدة تفيض رقـــة وعذوبة وصدقا، يتحول الوطن فيها إلى حبيبة، وتشعر وأنت تقرؤها أنك أمام قصيدة غزل وقصة حب:

أيَّامُ قُرْبِك عنـــدي مـــا لهـــا ثَمَـــنُ ... لكنَّني صدَّني عـــن قُرْبـــكَ الـــزَّمنُ
حَطَطْتُ بعدك يا أهلي ويـــا وطنـــي ... رَحْلَ الغريبِ فلا أهلٌ ولا وطنُ(١٠٧)

يبدأ النص بالاعتذار، الاعتذار بالزمن صاحب السطوة التي لا يملك أمامهـــا خيارا، ونلحظ القرب والتودد في تتابع النداء في البيت الثاني مع الجمع بين الأهـــل والوطن، ويتزامن ذلك مع التعبير عن الغربة والفقد، ويستمر في الاعتذار، ونسبة ما جرى معه للدهر:

والأمـــرُ أمـــري والـــدُّنيا مســـخَّرةٌ ... وكُلِّ قَصْـــدٍ بـــه الإسْـــعادُ مقتَـــرِنُ
حتَّى تَنَبَّه جَفْنُ الـــدَّهرِ مـــن سِـــنَةٍ ... والدَّهرُ مضطرِبٌ والحُـــرُّ مُمْـــتحَنُ
حمامةَ البانِ ما هـــذا البكـــاءُ علـــى ... مرِّ الزَّمانِ وهذا الشَّجْو والشَّجَن(١٠٨)

من أكثر القصائد التي كرر فيها دلالات الزمن، واستخدمها بمعنى السطوة والقوة السلبية، ليدافع عن الغني بالله، وأنه لم يرحل عن مملكته تهاونا أو ضعفا؛ فتلك مشيئة الله، كما يظهر ما في هذه الأبيات من اللوعة والحزن، وغلبة أساليب العشاق وهمس المحبين ومفرداتهم الرقيقة مثل (راق عيني، جره الوسن، جفن، حمامة البان، الشجن)، ويسترسل الشاعر مع مشاعره وتشوقه للديار والذكريات، حتى يتحول الخطاب إلى الغيبة، وكأن الحزن أخذ منه مأخذا؛ وفقد الأمل في العودة؛ فأخذ يلتمس أي طريق للوصال والاطمئنان على أحوال محبوبته:

يا نسمةَ الرِّيحِ كيف الدَّارُ هل عَمَرَتْ ... كلَّا وهل أخْصَبَتْ من بعدها الدِّمَنُ
لعلَّ من قد قضى يوما بفُرْقَتِنا ... تحُلُّ منه برفْعِ الفُرْقَةِ المَنَنُ
نستغفر الله كم لله من مِنَحٍ ... لُذْنَا بها بعد أن لاذتْ بنا مِحَنُ
ونسأل الله في عقبى نُسَرُّ بها ... فقد تساوى لديه السِّرُّ والعَلَنُ(١٠٩)

إن هذا النداء الرقيق وما يعقبه من استفهام ليكشف عن الشعور بالفقد والوحشة، والحيرة والقلق؛ فماذا حل بالديار من بعدنا؟ استفهام يحمل التمني أن تكون بخير حتى نعود إليها، ونلحظ هنا تحول الفاعلية من الدهر إلى الله سبحانه؛ ليقوي المعنى الذي دل عليه تكراره لمفردات الدهر وأن الغني بالله كان مرغما على ترك مملكته دون تفريط منه أو تهاون، لكنه قضاء الله وقدره.

ويتكرر الحديث عن الوطن في قصيدته التي ألقاها بين يدي أبي سالم المريني عندما قدم مع الغني بالله بعد الانقلاب:

بلادي الَّتي عاطَيْتُ مشمولةَ الهَوَى ... بأكنافِها والعيشُ فينانُ مُخْضَرُّ
وجَوِّي الَّذي ربَّى جَنَاحِيَ وَكْرُه ... فها أنا ذا مالي جناحٌ ولا وكرُ
نَبَتْ بيَ لا عن جَفْوَةٍ وملالةٍ ... ولا نَسَخَ الوَصْلَ الهَنِيَّ بها هَجْرُ
ولكنَّها الدُّنيا قليلٌ متاعُها ... ولذَّاتُها دَأْبا تَزُورُ وتَزْوَرُّ(١١٠)

حب رقيق مع شكر وامتنان لهذه البلاد التي احتضنته وأعطته وأرغدت عيشه، ثم فجأة فقد كل شيء، وأصبح خلوا من الدفء في وكرها، عتاب رقيق لغرناطة، وعتاب ساخط على الدنيا، الدنيا التي يجعلها الشاعر دائما وراء كل شيء، القوة التي تنزع منه كل قدرة على الاختيار أو التغيير، ولسان الدين عندما ينسب للدهر السطوة والقوة يظهره ذلك بمظهر القوة والصلابة، وبعض القبول والرضا بما يتناسب مع طبيعة الحياة وتقلبها، لذلك ظل متماسكًا قويًا:

وإن عَرَكَتْ منِّي الخُطُوبُ مجرِّبا ... نِقابا تساوى عنده الحُلْوُ والمرُّ
فقد عَجَمَتْ عودا صَلِيبا على الرَّدى ... وعزما كما تمضي المهنَّدةُ البَتْرُ(١١١)

ومرة أخرى يعاتب بلاده في مدحة لأبي سالم، وشكر له على أن أقال عثرته مما فعله به وطنه:

ورُكْنِي الَّذي لما نَبَا بي منزلي ... أجابَ ندائي بالقَبُول وآواني(١١٢)

وفي القصيدة ذاتها، يقول:

بلادي الَّتي فيها عَقَدْتُ تمائمي ... وجمَّ بها وَفْرِي وجَلَّ بها شاني
تُحَدِّثُني عنها الشَّمالُ فتَنْثَني ... وقد عرفتْ منِّي شمائلَ نَشْوَانِ
وآمُلُ أنْ لا أستفيقَ من الكَرَى ... إذا الحُلْمُ أوطاني بها تُرْبَ أوطاني(١١٣)

نلحظ الحب والانتماء لهذه "البلاد التي شب فيها صغيرا، ونشأ على ثراها شابا، وعظم بها شأنه، وارتفعت مكانته، وها هو في غربته بعيدا عنها يتنسم أريجها من ريح الشمال، هذه الريح التي تنقلب حاملة أريج نشوته وسعادته، ويتمنى أن يظل في نوم دائم، لأنه يعيش في نومه أحلاما تنقله إلى وطنه فيقيم فيه على ترابه الذي يعشقه"(١١٤).

وهكذا يظل لسان الدين يغني لوطنه أصدق مشاعر الحب والانتماء، وعندما يقسو الدهر عليه وتشتد وطأة الأيام يعاتبه عتابا قاسيا، ويوبخه على ما فعله به وكيف جازاه على إحسانه بالإساءة؛ فيكتب هذه القصيدة التي تكاد تنفرد بكونها القصيدة التي يصرح فيها لسان الدين بما جرى له، ويهاجم من تسبب بذلك، ويتهدد ويتوعد، ويعبر صراحة أنه اختار تجاهلهم وعدم الرد عليهم؛ فيقول معبرا عن خيبة أمله وحسرته على ما أصابه من غرناطة: "فمن المنظوم وقد جرى ذكر تأليفي الكبير في تاريخ "غرناطة" المسمى" بالإحاطة"، وما أصابني والحمد لله على البأساء والنعماء"(١١٥)، فالحديث عن كتابه العظيم أثار أشجانه، وذكره بالمكافأة التي قدمتها غرناطة له بالنفي والتغريب والخسارة:

جزَتْني غرناطةٌ بعد ما ... جَلَوْتُ محاسنَها بالجَلَا
ولم تُبْقِ جاها ولا حُرْمَةً ... ولم تُبْقِ مالا ولا منزلا
كأنِّي انفردتُ بقَتْلِ الحسين ... وجَرَّدْتُ سَيْفِيَ في كَرْبَلَا(١١٦)

يلمح إلى تجريده من كل شيء بصيغة الاستنكار الشديد وكأنه ارتكب جريمة تاريخية شنيعة، وهو في الحقيقة لم يفعل شيئا سوى إعطائها المديح والحب والشهرة:

ولم أَجْنِ ذنبا سوى أنَّني ... صَدَعْتُ بأمداحِها في المَلَا
وأنِّي صَنَّفْتُ فيها الغَرِيبَ ... فصِرْتُ الغَرِيبَ أجُوبُ الفَلَا
يمينا لقد أنكرتْ ما جرى ... نفوسُ الورى وأبْتُهُ العُلَا(١١٧)

يستخدم لفظ (الغريب) ليلفت الأنظار إلى المفارقة بين ما قدمه كل طرف للآخر، كما يقسم على أن ما حدث تنكره الفطر السوية، ثم يتوقف عن الإنكار متأسيا بمن سبقوه وحدث لهم ما حدث معه:

وما خصَّني زمني بالعُقُوقِ ... فكم ريءَ مِنْ فاضلٍ مُبْتَلَى(١١٨)

وهكذا يعود لفعل الزمن وسطوته، للحفاظ على تماسكه؛ لذلك يتوقف عن الشكوى والتذمر مما أصابه ويتحول إلى موقع القوة والتهديد:

فأقسم بالله لولا أُنوفٌ ... لجردّتُ من مِقْولي مُنْصُلا
فيتركُ في النَّاس أمثالَه ... تُحَدِّثُ لي رغم أنْف البِلَا
ولا خَلْقَ أجهلُ ممَّن يظنُّ ... بمقدارِ مثْلِيَ أن يَجْهَلَا
إذا ما رَكِبْتُ الدُّجَا إذ سَمَا ... يُقَلِّدُ للنَّجْمِ نَضْرَ الحُلَا[١١٩]

يتغير الخطاب، يستعيد الشاعر قوته من جديد، وتبدأ لغته تتجه للتهديد والوعيد، والثقة بالنفس، لا يزال يرى نفسه في موطن القوة والقدرة على الحرب والتنافس، بل والانتصار، لكنه يختار الحكمة وطريق السلام ويؤثر الهدوء:

ولكنْ لَقِيتُ بصبرٍ جميلِ ... قضاءَ الَّذي لم يزل مُجْمَلا
وحاسبتُ نفسي فيما أمرٍّ ... فألفيتُه البعضَ ممَّا حَلَا
وأسكنتُ ثَأْري لما دَعَا ... وأسكنتُ بَأْسي لما غَلَا
سلام عليها وإن أَخْفَرَتْ ... ذِمَامي ووُدِّي جَزَتْ بِالقِلَا
وألبستُها الأمنَ سِتْرا حَصينا ... وإن هَتَكَتْ سِتْري المُسْبَلا
ومِثْلي يبقى على عَهْدِهِ ... إذا أعرض الخِلُّ أو أقبَلَا[١٢٠]

هكذا تتلاحق أبيات الفخر ومعاني الثقة بالنفس، إنه الثابت على مبادئه الراسخ رسوخ الجبال، الواثق الذي لا يهزه شيء ولا تغيره الحوادث مهما عظمت، الرزين الذي لا تأخذه الانفعالات السريعة، على الرغم من كل ذلك الحب والانتماء إلا أنه يرفض الاستسلام والسقوط، يحاول التماسك من خلال التظاهر بالقوة، بالرجوع إلى الزهد والتخلي.

ونختم هذا الحديث بأبيات ربما يكون فيها إجابة على من يتساءل لماذا ترك لسان الدين وطنه على الرغم من هذا الحب الذي يحمله له:

إذا فكَّـــرْتَ فـــي وطـــنٍ كـــريمٍ نَبَـــتْ بـــك عنـــه نائبَـــةُ اغتـــرابِ
وعوَّضَـــكَ الزَّمـــانُ بِشَـــرِّ دارٍ وسُـــكْنَى منـــزلٍ وَحْـــشِ الجَنَـــابِ
فأَبْـــدِ بمـــا انتقلـــتَ لـــه اغتباطـــا وفكِّرْ فـــي انتقالِـــكَ للتُّـــرابِ(١٢١)

هكذا يسدي لنا هذه النصيحة؛ لا تتوقف على شيء أو من أجل شيء مهمـــا كان قيما، ومهما كان البديل بخسا، يعلمنا الرضا وعدم التمسك بالـــدنيا وتـــذكر مـــا بعدها.

تنكر الأصدقاء:

وله في ذكر تقلب من كانوا في ظاهرهم أصدقاء وهم يبطنون غيـــر ذلـــك، ولكن تجاربه علمته كيف يرى بواطنهم مكشوفة أمامه:

كِلْنِي لعِلْمِي فـــي صِـــحَابي إنَّنـــي بهـــمُ خبيـــرٌ مـــاهرٌ ومجَـــرِّبُ
لكَ ظاهرٌ منهمْ حَكَمْـــتَ بـــه ولـــي منهم بواطِنُ عـــن عِيَانِـــكَ غُيَّـــبُ
سِـــيَّانِ مـــنهمْ واصِـــلٌ أو هـــاجرٌ أو عـــاذرٌ أو عـــاذلٌ ومؤَنِّـــبُ(١٢٢)

فالأصدقاء في رأيه يضمرون الشر في كل الأحوال مهما أظهروا من الـــود والوصل، والصداقة الحقيقية مثل العنقاء لا وجود لها، بل أغرب منها، ولا استمرار للأصدقاء، ولكن ذلك هل سيصيب لسان الدين بخيبة الأمل والحزن:

مهما جَفَاني صاحبٌ في النَّاس لـــي سَعَةٌ وفي عَرْضِ البسيطة مـــذهبُ
لا تستقرُّ علـــى التَّنـــافسِ صُـــحْبَةٌ ومـــودَّةُ الأكفـــاءِ أمـــرٌ يَصْـــعُبُ
والماءُ إن ألـــفَ الثَّـــواء تغيَّـــرَتْ أوصـــافُه وعَلَـــا عليـــه الطُّحْلُـــبُ
إنَّ الصَّـــداقةَ لفظـــةٌ مـــدلولُهَا في الدَّهرِ كالعنقاءِ بل هو أغربُ(١٢٣)

يكرر المبدأ الذي يسير عليه عندما يتنكر له المكان؛ فالحياة لا تتوقف علـــى شيء محدد، بل المبدأ الذي نشره في مجمل أشعاره، التخلي والقناعة والرضا، وهذا يفسر لنا لماذا لم يلتفت ابن الخطيب لأصدقائه الذين تنكروا له، لم يشتك من الوحـــدة

وتغير الناس عليه، بل ذهب يبني علاقات جديدة، ويبحث عن الأمان والطمأنينة بنفسه دون أن يتوكأ على أصدقائه القدامى، وكنا نفترض أن يكون أكثر من يشتكي خذلان الأصدقاء؛ لأن من وقف بوجهه وسعى ضده كانوا هم أصدقاء الأمس، بل تلميذه الذي قربه وفتح له أبواب الحمراء، ثم نقرأ ديوانه لا نجد له ذكرا، لا نجد حزنا ولا خيبة أمل ولا تحسرا، كما لا نجد خطابا لهؤلاء الأصدقاء، لا عتابا ولا توبيخا ولا بكاء ولا ذكراً، اكتفى بهجائهم في كتبه هجاء مقذعا يعريهم فيه من كل فضيلة.

ونجد بعض الإشارات اليسيرة لشعوره بالوحدة أو الشكاية من الأصدقاء، مثل قوله:

تَلَوَّنَ إخواني عليَّ وقد جَنَتْ ... عليَّ خُطُوبٌ جَمَّةٌ ذاتُ ألوانِ
وما كنتُ أدري قبل أن يتنكَّروا ... بأنَّ خِوَاني كان مَجْمَعَ خَوَّاني
وكانتْ وقد حُمَّ القَضَاءُ صنائعي ... عليَّ بما لا أرتضي شَرَّ أعواني[١٢٤]

"يشكو تنكر الإخوان له وانقلابهم عليه، وهم الذين كم رتعوا في نعمته، وأكلوا على مائدته وهو لا يدري أن خوانه أي مائدته قد جمع حوله خوانه جمع خائن، أو خوان على سبيل المبالغة... هؤلاء الخونة كانوا جميعا صنائعه، فلما حم القضاء عليه انقلبوا فصاروا شر أعوان"[١٢٥]، ويستخدم هنا الأفعال المزيدة ليتناول المعنى من جميع نواحيه، ويحقق التوازن بين شعره وحاله المثقل بالهموم نتيجة ضغائن الناس وأحقادهم[١٢٦]، ونلحظ هنا اعتماده على الجناس لإبراز التناقض والتحول بين الحالين.

ويمكن أن ندخل هنا أبياته في توديع الغني بالله، بعد أن قرر مغادرة الأندلس إلى غير رجعة؛ فأرسل له رسالة يعلل فيها سبب الرحيل، ويؤكد بقاء الود وإمكانية العودة، ويطلب منه العفو ورعاية أبنائه وأسرته، ويسدي له بعض النصح، والرسالة تبدأ بهذه الأبيات المؤثرة في صعوبة الفراق:

بـــانُوا فمـــن كـــان باكيـــا يبكـــي هَذي ركـــاب السُّـــرى بـــلا شَـــكِّ
فمِـــنْ ظُهـــور الرِّكـــاب مُعمَلَـــةً إلى بطـــون الرُّبـــى إلـــى الفُلْـــكِ
تصـــدَّع الشَّـــمْل مثلمـــا انحـــدرَتْ إلـــى صُـــبوب جـــواهرُ السِّـــلكِ
مِنَ النَّـــوى قبـــلُ لـــم أَزَلْ حَـــذِرا هذى النَّوى جَلَّ مالِكُ المـــُلْكِ(١٢٧)

نلمح هنا الحزن والأسى والدموع واللوعة، فالنوى الذي طالما تهرب منه ها هو يقع، تصدع الشمل وانفراطه مثل تساقط جواهر السلك، هكذا تتـــوالى الصـــور ويتدفق لشعور في لحظة الوداع، هكذا يكشف لنا شعور لسان الدين أنه مـــا خـــرج مختارا، بل أجبر على الرحيل، وهذه الأبيات وما يتبعها من رسالة نثريـــة تكشـــف صعوبة القرار، وحزنه على الفراق، وبقاء الود والرغبة في العودة.

وفي ديوانه قصيدة أخرى يتحدث فيها عن الناس عامة في الأنـــدلس يظهـــر فيها تبرمه وضيقه منهم، ومن صعوبة إرضائهم، أشار لها في كتابه (أعمال الأعلام) في معرض الحديث عن صعوبة السلامة من ألسنة الناس(١٢٨)، وتكشف عن الجبهات التي كان يصارع فيها وهو السياسي العالم الأديب، وتكشف حالته النفسية السيئة في الأندلس وشعوره بالضيق ممن حوله، ويلمح إلى تكالب الناس عليه وكثرة الوشايات حوله، يقدم لها بقوله: "قلت من قصيدة شرحت فيها حالي فيما بليت به الأندلس مـــن مكابدة الصم البكم الذين لا يعقلون:

إن تورَّعـــتُ أصـــبحتْ حَـــوْزَةُ المـــُلْكِ ضِـــياعا لجُـــرْأَةِ الفُجَّـــارِ
أو طَـــرَدْتُ العُفـــاةَ خِفْـــتُ مـــن الله إذا مـــا سُـــئِلتُ عـــن أَوْزَارِ
أو تقاعدْتُ أصبحَ الأمـــرُ فوضـــى تَلْعَـــبُ الشَّـــاةُ فيـــه بـــالجَزَّارِ
أو تعرَّضْـــتُ وانْتَـــدَبْتُ سَـــمِعْتُ النَّقدَ حالَ الإيرادِ والإصـــدارِ"(١٢٩)

وهكذا يرى أن الأبواب كلها أوصدت، ولم يجد مدخلا يرضـــي هـــؤلاء أو يعجبهم، ويسترسل في ذلك لينتهي إلى قوله:

لـــم أجـــدْ مُسْـــلِما يقـــومُ بِحَقِّـــي ... نـــاظِرا لـــي بمُقْلَـــةِ اسْـــتِعْبارِ
أو وَلِيّـــا يُعطِـــي لطَـــوْرِيَ حَقّـــا ... ويـــرى فَضْـــلَه علـــى الأطـــوارِ
غيـــرَ أعمـــى الفـــؤادِ يَعْلَـــقُ فـــي ... رِجْلِي عُلُوقَ الكُرُومِ في الأَشْـــجارِ
طالِبـــا كـــلَّ مـــا اقتضـــاهُ هَـــوَاه ... هَبْهُ بالرِّبْحِ عـــادَ أو بالخَسَـــارِ(١٣٠)

شعور بالغربة والانفصال عن كل هؤلاء؛ فهم لا يشعرون بالرضا عـــن أي شيء، ويفتقر هو للشعور بالتقدير منهم أو الانسجام معهم.

والناظر في أبيات لسان الدين التي اشتكى فيها من تنكر الوطن والأصـــدقاء يلمس أنها جاءت وسطا بين القوة والانكسار؛ فيتنازع نفسه التيـــاران معـــا فـــي آن واحد، فيظهر الأسف والتأثر جنبا إلى جنب مع التأسي والتجلد، وســـيختلف الأمـــر عندما نقرأ أشعار المديح على ما سيأتي.

٢/ الانكسار في شعر المديح (الاحتماء السياسي):

يشكل المديح ما يقارب ثلثي ديوان لسان الدين(١٣١)، ووراء ذلك أسباب تتعلق بدوره السياسي(١٣٢)، ومسؤولياته وظروفه الخاصة(١٣٣)؛ إذ يتخذ شعره المدحي طابعا ذاتيا جنبا إلى جنب مع صبغته الرسمية؛ فقد كان مـــرآة تشـــف مـــا وراء روحـــه، وتكشف تقلباته النفسية وأصداء الأزمات التي تعرض لها على المســـتوى السياســـي والاجتماعي والمادي، والتي انطبعت على شعره، وعلى شخصيته وطبعتها بطـــابع الخوف والحذر.

وقد تعرض المديح في ديوان ابن الخطيب لتحول مهم فرضته طبيعة حياتـــه والتحولات التي أصابته؛ ففي الشباب وقبل الأزمات كان مديحه "من النـــوع الرفيـــع الذي لا يشوبه التنزل الوضيع، بل تطبعه علـــى الأغلـــب نزعـــة مـــن الاعتـــزاز والكرامة"(١٣٤)، وبعد ذلك سيطال مديحه التغير، وستظهر عليه ألوان "من الملق كانت

تمليها عليه، على الأغلب، ظروف حياته، ولا سيما حياة المنفى في المغرب، حيث كان يعيش تحت كنف سلاطينه، مشمولا بحمايتهم، ورعايتهم"[١٣٥]، وهاجمه بعض الباحثين، ورأى أنه بالغ فيه وذهب إلى حد بعيد؛ فخاطب السلاطين "بعبارات التبجيل والتفخيم، وبكثير من العبودية والدونية"[١٣٦]، ولا شك أن هذا الرأي يجانبه الصواب، وهذا الباحث ذاته قال في موضع آخر عن الشعر عند لسان الدين: "لم يقف ابن الخطيب حياته على الشعر، ولا اتخذه وسيلة تكسب، أو حرفة، فقد قاله إظهارا لمواهبه، أو إشباعا لرغبته، وربما نظمه تمشيا مع مفهوم العصر، الذي فرض على كل عالم أو أديب أن ينظم الشعر"[١٣٧].

وقصيدة المديح في شعر لسان الدين نحت منحى محددا مهما اختلفت السياقات وتعددت الموضوعات، فكلها تصب في النهاية في معنى الحاجة إلى الاحتماء، وإظهار معادلة واحدة تقوم على التضاد بين ضعفه واحتياجه وقلة حيلته مقابل قوة الممدوح وقدرته على إخراجه من الضيق الذي هو فيه، ومد يد العون له[١٣٨]، والممدوح هنا أقوى من الدهر والزمن؛ فحديثه عن الدهر في سياق المديح سيختلف عنه في شعر الزهد والوعظ؛ فالدهر هناك كان قوة محركة مؤثرة وله سطوة قوية مقابل ضعف الإنسان، أما في سياق المديح فسيكون الممدوح هو صاحب السطوة والتأثير، فالعلاقة تفاعلية بين الدهر والممدوح، يتبادلان التأثير وتوزيع القوى.

ولذلك ستكون قصيدة المديح البوابة الكبرى التي لا يستنكف فيها لسان الدين عن إظهار الضعف والاحتياج، ولا يلجأ إلى التظاهر بالقوة وعدم الاهتمام؛ ويعود ذلك إلى الواقع السياسي المحيط به فهو يستدعي عوامل القلق والخوف على الذات من بطش السلطة الحاكمة، "وحين يكون ابن الخطيب في مواجهة هذه السلطة فلا شك أن عوامل القلق تزداد، مما جعله يقتنص الفرص والمناسبات لتخفيفه، وكانت عوامل الرؤية تحيله إلى تثبيت مواصفات السلطة في داخله، فقد حضر ورأى عاقبة

المقتربين من حماها، إنها ليست كلأ مباحا بل منيعة يحرق مقتربها ويمزق..."[١٣٩]؛ فكيف إن كان قد وصله من شرار هذه النار وأحرقته بالفعل! ماذا نظنه فاعلا وقد خسر كل ما اكتسبه؟

فهذه المواصفات التي يعرفها عن السلطة وما اكتوى به من جحيمها سببت له القلق والهلع، "فغرست فيه مفهوم الاحتماء والتقرب كي لا تطاله يدها يوما، فهو يمدح ليتقي سياطها، بل نراه قد مدح من تغلب ثم مدح المتغلب على المتغلب الأول"[١٤٠]، وهذا سيجعل ظاهرة التناقض والتملق وقلة الوفاء ظاهرة ملازمة لشخصيته عند كل من يتحدث عنه، ونظر لها بعض الباحثين نظرة سلبية؛ وأنها سقطة من سقطات لسان الدين، وصفة من صفات الانتهازيين[١٤١]، غير أن المنصف عندما يتعمق في الجو السياسي وما كان يدور فيه لا يلوم ابن الخطيب على ما يبدر منه وهو في خضم تلك الظروف والأمواج العاتية، وأنه مضطر لذلك لينجو بنفسه ويأى بها عن مخاطر الملوك وغدراتهم.

فالمديح في شعره سيكشف كل ما تعانيه نفسه وما تشعر به من الخوف والقلق وانعدام الأمان؛ وسيسعى من خلاله لتحقيق غايات مختلفة عما كان يسعى إليه قبل الغربة والنكبات التي تعرض لها؛ فستكون غايته التقرب السياسي والاحتماء بالسلطة واتقاء بطشها والبحث عن الأمان في ظلالها، وسترتكز معانيه حول إبراز معاناته ليستدر العطف ويستجلب العطاء والحماية، وسيطغى على لغته روح المعاناة ودلالات القلق والوجع والفقد، وطابع الإذلال والانكسار، وتفيض مدائحه بالشكوى والاستعطاف، وكذلك الغلو؛ فمدح المطمئن يختلف عن مدح المذعور اللاجئ الهارب من كل شيء.

وستبرز ظواهر أخرى أيضا "منها كثرة الحديث عن أيام السعادة والهناء، وشكوى الدهر وأيام الشقاء، والتألم من قسوة الأيام، والتحسر على ما فات من عمره

كالأحلام، وكثيرا ما كان يظهر في شعره إنسانا ملحا شديد الإلحاح يسعى لتحقيق مطلب، أو بلوغ مأرب..."[١٤٢]، والتذمر من الدهر وأهله وتحميله وزر المسؤوليات، من المعاني التي شاعت في الشعر الأندلسي نتيجة معطيات بيئية سياسية واجتماعية، وصدرت عن معاناة وكوارث وأهوال مست المرء في كل قيمه، خلافا لما يمكن أن تكون عليه الشكوى في غير النتاج الأندلسي[١٤٣].

أولاً: شعر ابن الخطيب في مدح الغني بالله:

المطلع على ديوان لسان الدين سيلمس التحول في شعره المدحي؛ فبالنظر في مدائحه قبل النكبة وجلها في أبي الحجاج[١٤٤] نجد "نفسية قوية ومتماسكة"[١٤٥]، ونستشف أن دافعها الإعجاب بشخصيته، والعلاقة الوثيقة بينهما، وكانت تأخذ منحى تقليديا على النحو الذي عهدناه في الشعر العربي بإضفاء الفضائل العظيمة عليه وتصوير بطولاته وأمجاده[١٤٦]، والأمر ذاته ينطبق على مدحه للغني بالله قبل النكبة[١٤٧]، مع وجود بعض الفوارق بين مدحه للملكين.

أما بعد الأحداث التي تعرض لها لسان الدين فستجنح مدائحه إلى المنحى الآخر، بدخول مفردات الاستعطاف والشكوى وإعلان الانكسار والضعف، نقرأ مثلا قصيدته التي يخاطب فيها الغني بالله عندما ذهب إلى الأندلس لاسترجاع ملكه، وهي قصيدة طويلة جاءت في مائة وتسعة وتسعين بيتا، ويستهلها بالحكمة والمديح والتشجيع، وإسداء النصائح له، وذم صنيع إسماعيل وغدره...، ثم يختم القصيدة بطلب الغوث منه:

مَوْلايَ هاضَني الزَّمانُ وسَامَني ... جَوْرا وأنتَ هو الإمام الأعْدَلُ
أنْحَى على وَفْرِي ورَوَّعَ مَأْمَني ... ظُلْما وحمَّلَني الَّذي لا يُحْمَلُ
ورمى بنا البحرُ المحيطُ ولو دَرَى ... من دونه مَرْمى لقالَ لنا ارحلوا
إنَّا قُتِلْنا بالنَّوى سِيَّان مَنْ ... يُجْلى عن الأوطانِ أو من يُقْتَلُ[١٤٨]

بعد أن يفرغ من المديح ويلتفت إلى نفسه يتحول الخطاب إلى الشكوى من جور الزمان، ولا يكتفي بذلك؛ بل تتوالى قائمته البكائية ويسرد تفاصيل ما فعله الزمان به (هاضني، سامني، أنحى، روع، حملني، رمى)، وهكذا ابن الخطيب كلما أراد التعبير عن ضعف الحيلة، رمى باللائمة على الزمن القاسي وتكالب الأيام عليه، ثم رمى المسؤولية على السلطة التي تستطيع إنصافه وإعادة حقوقه والانتصار على الدهر:

وأنا الَّذي ما لي إليك وسيلةٌ ... أُدْلي بها لعُلَاكَ أو أتوسَّلُ
أنتَ الوسيلةُ لي إليك فلا تُضِعْ ... قَصْدي فمِثْلُكَ من يَقُولُ ويَفْعَلُ
ما لي ولا لبنيَّ غيرَكَ رحمةٌ ... لكنَّ عُذْرِي واضحٌ لا يُجْهَلُ[١٤٩]

نرى لغة الاستعطاف والتذلل التي يخاطب بها ابن الخطيب سلطانه، وسنرى الذل في تعبيره بشكل عام في مخاطبة السلاطين اتقاء لجورهم وبأسهم؛ فهو في فرار منهم إليهم[١٥٠].

ثانيًا: شعر ابن الخطيب في خطاب حكام المغرب وأعلامها:

عندما وطأت أقدام ابن الخطيب أرض المغرب مكرها، وفي اللحظة التي جرب فيها مرارة الغربة وتنكر الوطن، عبر عن ذلك بمرارة في كل مرة خاطب فيها ملكا من ملوك المغرب، وظهر التحول في قصيدته المدحية، ويتخذ منها ميدانا يصدح فيه بشعوره بالمرارة والألم، كما أعلنت هي عن ضعفه وخوفه، ونرى ذلك مع قصيدته الأولى التي ألقاها عندما وفد مع الغني بالله على السلطان المريني أبي سالم؛ فأحسن وفادتهما، ورفع قدرهما؛ فخاطبه:

سَلَا هل لديها من مُخَبِّرَةٍ ذِكْرُ ... وهل أَعْشَبَ الوادي ونَمَّ به الزَّهْرُ؟[١٥١]

وتبدأ لغة ابن الخطيب تميل إلى مفردات التذلل والاستعطاف، كما يجنح إلى الغلو في سبيل تحقيق أهدافه والحصول على الأمان المنشود:

قَصَدْناكَ يا خيرَ الملوكِ على النَّوى   لتُنْصِفَنَا ممَّا جَنَى عَبْدُكَ الدَّهرُ
كفَفْنا بكَ الأيَّامَ عن غُلَوائها   وقد رابنا منها التَّعسُّفُ والكِبْرُ
وعُذْنا بذاكَ المجْدِ فانصرم الرَّدى   ولُذْنا بذاك العَزْمِ فانهزمَ الذُّعْرُ
ولما أتينا البَحْرَ يُرْهِبُ مَوْجُه   ذَكَرنا نداك الغَمْرَ فاحْتُقِرَ البَحْرُ(١٥٢)

إنه قدر هائل من الغلو والمبالغة وهناك مزيد متناثر في القصيدة، حتى يرى بعض الباحثين أنها تقدح في عقيدته(١٥٣)، وهو يكشف عن نفسية بلغ منها الخوف مبلغا عظيما ثم شعرت في لحظة ما بالأمان؛ فكأنها تخشى فقده، متخذة بذلك كل ما أوتيت من سبل، سواء أكان ذلك بالمبالغة في المديح أم في وصف الحال وشدة الاحتياج؛ ويستحث أبا سالم على العطاء والإنصاف من خلال إظهار جناية الدهر، ونلحظ حشد المفردات المتضادة بين (الدهر، الأيام، الردى، الذعر)، كل هذه المعطيات تقابل بعطاء أبي سالم (قصدناك، لتنصفنا، كففنا بك، عذنا، لذنا، نداك الغمر)، حتى ليعبر عن احتياج الغني بالله بنفس تلك المفردات:

وهذا ابنُ نَصْرٍ قد أتى وجناحُه   مَهِيضٌ ومن عُلْياكَ يُلْتَمَسُ الجَبْرُ
غريبٌ يُرَجِّي منك ما أنت أهلُه   فإن كنتَ تبغي الفَخْرَ قد جاءك الفَخْرُ(١٥٤)

والمبالغة ظاهرة في شعر ابن الخطيب عامة "أنواعها في غلو وإغراق وإحالة"(١٥٥)، وفي مدائحه لملوك المغرب بشكل خاص، وهو انعكاس طبيعي للخوف والحذر والبحث عن الأمان.

وفي قصيدته الأخرى التي يهنئ فيها السلطان "أبا سالم" بفتح تلمسان، يخصص آخر ثلاثين بيتا منها ليتحدث عن حاله وحاجته ومعاناته، يبدأ الختام بالتعبير عن الحب، ثم يسهب في شكر أياديه البيضاء وعطاياه الجمة، وما قدمه له من الحماية والأمان ضد صروف الدهر ونكباته:

وعالجَ أيَّامي وكانتْ مريضةً   بحِكْمَة مَنْ لم ينتظرْ يومَ بُحْرانِ

فأمَّنَني الدَّهرُ الَّــذي قــد أخــافَني وجدَّدَ لي السَّعدَ الَّذي كــان أبْلَــاني
وخَوَّلَني الفَضْلَ الَّــذي هــو أهلُــه وَشِيكا وأعطــاني فــأفْعَمَ أعطــاني
تَخوَّنَني صَرْفُ الحــوادثِ فــانثنى يُقبِّل أرْدَاني ومن بعدُ أرْدَانــي(١٥٦)

ونلاحظ احتفال ابن الخطيب في هذه الأبيات بالجناس وما يؤدي إليــه مــن الترنيم الموسيقي فضلا عن إثارة الانتباه إلى تغير حاله وتبدله من سيئ إلى أفضــل والعكس، ونلحظ هذا التسارع في البيتين الأخيرين، في البيت الثالث الفضــل الــذي أغدقه عليه أبو سالم، وفي البيت الأخير كيف تسارع صرف الحوادث في تغيير حاله إلى الأسوأ، كما نلاحظ تغير دلالات الأيام والدهر؛ ففي أشعار الزهد كان صــاحب السطوة والفاعلية، أما هنا فالممدوح أصبح ندا له، واستطاع الانتصار لابن الخطيب من قوة الدهر وسطوته:

فأمَّنَني الدَّهرُ الَّــذي قــد أخــافَني وجدَّدَ لي السَّعدَ الَّذي كان أَبْلاني(١٥٧)

ولم يكتف لسان الدين في سبيل تحقيق غايته بذلك بالمبالغة في المديح وبــث الشكوى للممدوحين؛ بل جنح في كثير من أشعاره إلى التوسل بهم أحيــاء وأمواتــا، ويسير في ذلك على ما شاع عند الأندلسيين من عدم الاقتصار فــي التوســل علــى الرسول عليه الصلاة والسلام؛ بل بالأولياء والصالحين، وتجاوزوه أحيانا إلى طلــب الاستغاثة وخلعوا على المستغاث به صفات الإله، وقد أكثر ابن الخطيب منه تقربــا للسلطة واحتماء بها ومنها، والملوك كان يعجبهم ذلك، وكان التوسل اتجاهــا عامــا تبنته السلطة وعملت بمقتضاه(١٥٨)، وإمعانا في إرضائها توجه إلى زيارة الأضــرحة والقبور والتبرك بها وهو الأمر الذي شاع عند ملوك بني مرين، ويشخص النزعــة الدينية عندهم(١٥٩)؛ فنقرأ في ديوانه مثلا: "وقلت أخاطب السلطان "أبا سالم" رحمة الله عليه، أيام التحرم بتربة أبيه بمدينة "سلا" حرسها الله:

عن بابِ والدكَ الرِّضَـــى لا أبــرحُ ... يأسو الزَّمـــانُ لأجْلِهـــا أو يَجْـــرَحُ
ضُرِبَتْ خيامي في حماه فصِــبْيَتِي ... ترعى الجَمِيمَ به وبَهْمِـــي تَسْـــرَحُ
حتَّى يُرَاعى وجهُـــه فـــي وِجْهَتـــي ... بعنايةٍ تَشْفِي الصُّدورَ وتَشْـــرَحُ"(١٦٠)

يقول إنني سأظل ملتجئا لقبر والدك حتى أحصل على ما يشـــفي صـــدري، ويربط احتياجه دائما بأبنائه، وعبر عنهم بالصبية ليوحي بشدة الاحتياج(١٦١)، وهـــذه القصيدة وغيرها كتبها ابن الخطيب في سبيل البحث عن حقه وطلب استرداد أمواله وممتلكاته التي سلبت منه في الأندلس من إسماعيل بن أبي الحجاج، وربما يكون هذا الأمر وراء كثرة المدائح في أبي سالم أكثر من غيره من ملوك بني مرين.

ولننظر كيف يخاطب الملك أبا زيان مصرحا بانكساره، بعد أن مدحه وهنأه بقضائه على الفتنة واستعادة ملك آبائه:

قَلْبِـــي يُحَـــدِّثُني بأنَّـــكَ جـــابِرٌ ... كَسْري، وحَظِّي منكَ حَـظٌّ وافِــرُ
بِثَرَى جُدُودِكَ قد وَضَعْتُ حقيبتـــي ... فوسيلتي لعُلَـــاكَ نـــورٌ بـــاهرُ(١٦٢)

يصرح بلفظ الانكسار ليعبر عن شدة الاحتياج ثم يعزز ذلك بالتوسل بقبـــور أجداده، ويكرر ذات المفردات من الترويع والانكسار وضيق الحيلة في مدحية أخرى طويلة لأبي زيان(١٦٣)، ثم يختمها بقوله:

وأنتَ الأمانُ المستجارُ من الـــرَّدَى ... إذا راعَ خَطْـــبٌ أو تُوقِّـــعَ إمـــلاقُ
وأهْوَنُ ما تُرْجَـــى لـــديكَ شَـــفاعةٌ ... إذا لم يكن عَزْمٌ حَثيثٌ وإرهاقُ(١٦٤)

نلحظ هنا الغلو في هذه الأبيات وكيف جعل أبا زيان مستجارا من كل شيء حتى الموت!

وبعد أن يحدق بابن الخطيب الخطر بتزعزع الدولة المرينية وتـــدخل ابـــن الأحمر في هذه الأحداث من أجل الحصول عليه والزج به في السجن(١٦٥)، يحرص

"على أن يمهد مع من يثق فيهم من الملوك والسلاطين ليوم فرار لابد منه"(١٦٦)، فيتجه لملك الدولة الزيانية أبي حمو موسى الثاني سلطان تلمسان، يستصرخه ويستشفع به عند الغني بالله(١٦٧)، ويبحث لديه عن ملجأ يلجأ إليه عندما يتعذر المقام لدى بني مرين(١٦٨)؛ فخاطبه بقصيدة طويلة تجاوزت مائة وعشرين بيتا، سنجد شاعرا مختلفا وروحا أثقلتها صروف الدهر، روحا يائسة لم تعد تنتظر الكثير، اختفت مفردات الاستعطاف والتذلل والاحتياج، تشعر وكأنها الورقة الأخيرة والمحاولة اليائسة؛ بعد أن بلغت نفسيته الذروة في الانكسار والخوف من المصير المحتوم، فكان جل القصيدة في الحكمة والمديح ومعان أخرى مختلفة، أما رسالة الشاعر ومبتغاه فجاء في أبيات قليلة وأداء مختلف عما سبقه من قصائد:

جَعَلْتُكَ مَرْمَى هِمَّتِي ومُؤَمَّلا ... لنيلِ الَّتي ما هَامَ بها غَيْرِها هَمُّ
وقَوَّضْتُ رَحْلِي عن بلادٍ نَبَا بها ... مِهَادي إلى حيثُ السَّلامةُ والسِّلْمُ
وما كنتُ أخشى الجَوْرَ في حُكْمِ جِيرَةٍ ... أَجَرْتُهُمُ فاعْتُدَّ ذلك لي جُرْمُ
آتَيْتُهُمُ بالصُّبْحِ لكنَّهمْ عَمُوا ... وآذَنْتُهُمْ بالصُّبْحِ لكنَّهم صَمُّوا
سأذْكُرُهمْ حيثُ احْتَلَلْتُ وإنْ نَسُوا ... وأمدَحُهُمْ مهما قَدَرْتُ وإن ذَمُّوا(١٦٩)

لم يكن ضعفًا وانكسارًا، ولم يكن تهافتا على مال أو جاه، ولا بحثا عن مكانة، كما أنه لم يكن تذللا وخضوعا، إنها روح منكسرة لا تقوى على الحراك، وقلب يحمل عتبا عظيما على كل شيء، -ونرمق هنا العتب الشجي على البلاد بعد كل هذه السنوات لا زال يحمله في نفسه-ونفس فقدت الأمل وترمي بورقتها الأخيرة لعل وعسى، لم أر لسان الدين يتحدث بهذا الكم من خيبة الأمل، لم أره يتخذ جانب الضعيف الذي يقابل الإساءة بالإحسان كما يتحدث بهذه القصيدة، يعبر عن الأسف والخسارة والضياع، كان دائما باحثا عن حقوقه ومكانته وماله وعتاده، أما هنا فكان يشعر بخسارة الروح لذلك تغير الحديث، وبدأ يستعيد شريط الذكريات، بدت التجربة

الشعرية أكثر تركيزا، لم تعد هناك قيمة لأي شيء سوى الحياة، ويضعها في كف أبي حمو فهو المخول لإعطائه هذه البغية:

وأنتَ لها من بُغْيَةٍ مَطَلَتْ بها ... صُرُوفُ زمانٍ نالَ أَنْفِي لها رَغْمُ
إلى أن أُقَضَّى في مُنَى الفَوْزِ بالمُنَى ... ويَثْبُتُ في أهْلِ السَّعادةِ لي سَهْمُ
فيا من رآني والحُدَاةُ مُرِنَّةٌ ... بشِعْرِي إذا ما زَمْزَمَ القومُ أو زَمُّوا
تَخُبُّ برَحْلِي كلُّ شاكيةِ الوَجَى ... هي القَوْسُ ترمي الرُّكْنَ، راكبُها سَهْمُ(١٧٠)

إلى أن يقول معلنا هدفه وغايته ومبتغاه الذي طالما كرره:

وكان مَحَجُّ البيتِ بَدْئِي وبَعْدَه ... بقَصْدِ رسولِ الله، يُسِّرَ لي خَتْمُ(١٧١)

ونلحظ هنا أنه لا يخاطب الملك إلا في كلمات مقتضبة، ليس هناك متطلبات كثيرة، لا يريد سوى النجاة.

وفي هذه القصيدة تجلت شاعرية لسان الدين، وفجر طاقاته الشعرية ومحصوله الثقافي الغزير، هل يريد أن يحرك الممدوح ويثير إعجابه؟ أو أن عمق التجربة وفداحة الألم وراء ذلك؟ وهذا المستوى –ما أطلق عليه بعض الباحثين– مستوى الحلم، وفيه يتجاوز ابن الخطيب "مستويين: الحس والعقل إلى مستوى الحلم حين يبدع، ويخلق صيغته الشعرية في ضوء رؤيا، إن اللغة الشعرية –في مستواها الحلمي– تعصف بمقاييس الأشياء وحدودها، وتدخل في علاقات بنائية غير خاضعة للمحسوس والمعقول، إنها تتخطى رتابة الواقع وسطحيته، وتتجاوز مقياس العقل ودقته، لتدخل إلى منطقة الرموز والعلامات والأحلام، حيث يتحرك الشاعر بحرية كبيرة، وينفلت من قيود القوالب الجاهزة"(١٧٢)، ويتجلى هذا المستوى بشكل خاص عندما تتعمق معاناته وألمه؛ فصور "زفرات نفسه، فجاء مندفعا بقوة الباعث النفسي، وجاءت معانيه دقيقة تحتاج، أحيانا، إلى غوص الفكر وكد الذهن، وخصوصا ما يوحي بإيهام التناقض في معاني البيت الواحد، إضافة إلى خياله الخصب المبدع

وعبقريته التصويرية التي آنستها نفسه. وكثيرة هي الخواطر والسوانح التي دونها في شعره، ثم انجلى يمتزج فيها القياس المنطقي بالموسيقى والشاعرية، والتصوير، وكل ما يتعلق به النظر بين الإنسان والمطلع، أو المطابقة بين اللغة والأشياء، وتلك هي من أهم الانهماكات الحديثة في الأدب"(١٧٣).

وكي يتضح الفارق أسوق هنا قصيدة وجهها لأبي سالم المريني، في ختام رسالة يطلب فيها منه أن يرسل رسولا إلى الأندلس يشفع له في رد ما أخذ منه، وبيع أملاكه هناك(١٧٤)؛ ليستقر في المغرب ويجاور قبر أبيه "وتعينوني لخدمة هذا المولى وزيارته وتفقده، ومدح النبي صلى الله عليه وسلم ليلة المولد في جواره وبين يديه..."(١٧٥)، يبدؤها مباشرة بقوله:

مولايَ ها أنا في جِوارِ أبيكا ... فابذلْ من البِرِّ المقَدَّرِ فيكا
أسمِعْه ما يرضيه من تحت الثَّرَى ... واللهُ يُسْمعُك الَّذي يُرْضِيكا
واجعلْ رضاه إذا نَهَدْتَ كثيبةً ... تُهْدِي إليكَ النَّصْرَ أو تُهْدِيكا(١٧٦)

هكذا نلاحظ كيف جاء التعبير مباشراً، والمعاني واضحة، أفعال إنشائية متلاحقة تحمل طلبا صريحا لا تشف شيئا وراءها، ولا شك أن ذلك يعود إلى الأمان الذي كان يشعر به وقتها؛ فأيام لسان الدين في (سلا) "هي الفترة الوحيدة الهانئة في حياته المضطربة، ولقد بقي يحنّ إليها طول حياته"(١٧٧).

وله قصيدة أخرى في مدح أبي حمو لا تختلف عن سابقتها(١٧٨)، يجمع فيها عدة أغراض(١٧٩)، تبدأ بمقدمة طللية تثير الأشجان، عندما تقرؤها تشعر بالوحشة والخوف، يسودها الهدوء والحزن، يستخدم مفردات الظلام والهمس والوحشة والوداع بصورة حزينة تعكس الوجع والفقد الذي يعيشه، والخوف والقلق من سوء المصير، ثم يتبعها ببعض الحكمة عن الزمان وترويعه لينطلق منها للمديح في إشارة إلى الغاية التي يعيش من أجلها الشاعر وهي الأمان والهروب من الموت، ويطيل في

المديح ليستغرق أكثر من نصف القصيدة وينتهي منه بمدح قصيدته، ثم التعبير عن حبه ومكانته في نفسه، ليفصح في ثلاثة أبيات فقط عن غاية مبتغاه:

لا يستقرُّ قرارُ أفكاري إلى ... أن أستقرَّ لدى عُلَاكَ جليسا
وأرى تجاهَك مستقيمَ السَّيْرِ ... للقَصْدِ الَّذي أعمَلْتُه مَعْكُوسا
هي دَيْنُ أيَّامي فإن سَمَحَتْ به ... لم يَبْقَ من شيءٍ عليه يُوسَى[١٨٠]

نتأمل هذه الأمنية ونتذكر قائمته الطويلة في مدحياته لأبي سالم ويتجسد أمامنا ضعف الإنسان وتضاؤل رغباته عندما يفقد الأمان ويشعر بقرب الموت، هكذا اختلفت مدائح الشاعر عندما حانت ساعة الصفر حتى خلت من كل روح إذ لم يعد يريد شيئا سوى الحياة.

ويرى بعض الباحثين[١٨١] أن مدحه لأبي حمو يشكل وجها من وجوه التناقض والتقلب في سلوك ابن الخطيب كونه مدح أعداء بني مرين عامة وعدو السلطان أبي فارس عبد العزيز خاصة [١٨٢]، وبخاصة في قصيدته التي يهنئه فيها لانتصاره على بني مرين واسترداده لتلمسان:

أنا شِيعَةٌ لكَ حيثُ كنتَ، قَضِيَّةٌ ... لم يختلف في حُكْمِها نَفْسَانِ
ولقد تشاجرتِ الرِّماحُ فكُنْتَ في ... ميدانِ نَصْرِكَ فارسَ الفُرْسَانِ[183]

مدح الأمراء والوزراء والأعيان:

لا نجد في ديوان لسان الدين مدحا للأمراء والوزراء إلا بعد رحيله للمغرب، أما قبل ذلك فلم يمدح سوى السلاطين، وما كان من مخاطبات للوزراء تندرج تحت فن الإخوانيات[١٨٤]، وبعد أن فقد قوته ومكانته، التفت إلى هذه الفئة، وكأنه يبحث عن طوق النجاة من أي طرف كان، وهذا التحول يعكس "مشاعر الإحباط التي عصفت بشخصية ابن الخطيب بعد أن كان صاحب عزٍ وجاه في غرناطة فأصبح

بعد ذلك مجرد لاجئ ينتظر العطف والمساعدة من الآخرين، كانت هي أهم المؤثرات التي أحدثت تغيراً في خط سير المدح عند شاعرنا الذي كان شعره وقفا على الأملاك والسلاطين"(١٨٥).

والاحتياج لذوي النفوذ لم يفقد لسان الدين أنفته وعزة نفسه؛ فاكتسى مدحه بهما وخلا من نغمة الحزن والشكوى، والحديث عن الألم والمعاناة أو الغربة والانكسار، على ما كان يفيض فيه في مدائحه للملوك والسلاطين، أما هؤلاء فلم يكن يرى أن لهم مزية عليه أو أنهم يستحقون مدحه؛ فغالب هذه المدائح يمكن أن ندرجها ضمن الإخوانيات(١٨٦)، وإن كانت لا تخلو من المبالغات التي عهدناها في مدائحه للملوك والسلاطين(١٨٧)، ويخرج عن هذه القاعدة عندما يكون الوزير مستبدا متملكا زمام الحكم، كما نجد في هذه القصيدة التي يمدح فيها الوزير "عمر بن عبد الله":

وأَوْعَدْتُ الزَّمانَ بك انتصاراً ... وأَرْغَمْتُ الخُطُوبَ بكَ اعْتِلاقا
فسامحْنِي فعُذْرِي غيرُ خافٍ ... إذا ما العُذْرُ في التَّقْصيرِ ضَاقَا
شَكَوْتُ لكَ التَّغَرُّبَ قبل هذا ... وها أنا بعدَه أشكو الفِرَاقا(١٨٨)

فهو هنا يستقوي بممدوحه على الزمن؛ فليس لسطوة الزمن سوى هذا الوزير؛ الذي سينصره وينتصر له، ويستعجله على ذلك داعيا له أن يحكم سيطرته على الدهر.

ويقول عن كاتب أبي حمو سلطان تلمسان:

فها أنا تحت ظلٍّ منه يُلْحِفُنِي ... والشَّمْلُ منِّي بستْرِ العِزِّ يَشْتَمِلُ(١٨٩)

ويقول مخاطبا مجموعة من ذوي الجاه:

يا بَنِي السَّادةِ الكرامِ نداءٌ ... يَبْتغِي الجَبْرَ للمَهِيضِ الكَبِيرِ
أنا بالحَيِّ مستجيرٌ وبالميتِ، ... أما في كِلَيْهما من مُجِيرِ

ليس موسى هذا بصـــاحبِ فِرْعَـــو ... ني ولا فـــي عصـــاه مـــن تـــأثيرِ
فانْصُرُوني وعَيِّنُـــوا لـــي رســـولا ... صـــارمَ الحَـــدِّ محكَـــمَ التَّـــدبيرِ
أو أريحـــوا باليـــأسِ قلبـــي فـــإنِّي ... قد تخبَّطْتُ فـــي عَنَـــاءٍ كبيـــرِ(١٩٠)

يقدم لسان الدين لهذه الأبيات في (نفاضة الجراب) بقوله: "لما صدر الرسول موسى بن إبراهيم من الأندلس ولم تقض حاجتي"(١٩١)، ويعبر في أبياته مباشرة عـــن خيبة أمله، وعن ترقبه للخلاص السريع والجواب المباشر؛ إما الأمل وإمـــا اليـــأس، مستعينا بقصة النبي موسى عليه السلام، وقول الله تعالى: {قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ أَلْقُواْ مَـــا أَنتُم مُّلْقُونَ} (١٩٢)، ويستجير بهؤلاء السادة لإخراجه مما هو فيه.

وهكذا تتوالى المدائح وطلب العون من الولاة وذوي النفوذ والجاه، ولعله من الجلي فيها "أن شاعرنا لم يكن صادقاً في مشاعره نحوهم، فقد رأى نفسه أعظم مـــن أن يمدح هؤلاء الّذين هم أقل شأناً منه، فالتكلف والتصنع كان السمة البـــارزة لتلـــك المِدح"(١٩٣)، ولا غرابة في ذلك إذ هذه العلاقات لم تكن صادقة بل كانت تتسم بكثير من الملق، وبنكران الصنيع أحيانا، فهم بالنسبة له مآمن يلجأ إليهـــا حينمـــا تـــدعوه الحاجة إلى ذلك(١٩٤).

وبذلك نكون قد عرضنا قصيدة المديح في ديوان لسان الـــدين مـــن زاويـــة أخرى، اتضح من خلالها أن شاعرنا نحا بقصيدة المديح منحى مختلفـــا؛ فلـــم تكـــن لعرض الفضائل والخصال الحميدة للممدوحين بقدر ما كانت مرآة شفت ما في نفسه وما في حياته، وكانت قصيدة تعج بالعاطفة الصـــادقة، لـــيس فـــي إزجـــاء الحـــب للممدوحين، بل في عاطفته الخاصة وشعوره العميق، حتى لنظن أنه عندما كتبها لـــم يكن ينظر سوى لنفسه، كان تكتب من مشاعر المعاناة والخوف والبحث عن الاحتماء والملاذات الآمنة، لذلك عجت بالعاطفة المتقدة والشعور الصادق، وليس كمـــا يـــرى بعض الباحثين أن فيها فتورا عاطفيا(١٩٥).

٣/ الانكسار في شعر المديح النبوي:

مدح الرسول عليه الصلاة والسلام في شعر ابن الخطيب مرتبط بظاهرة شائعة في المجتمع الأندلسي هي الاحتفال بالمولد النبوي، والتأليف في السيرة النبوية، والتشوق للأماكن المقدسة وما يتعلق بها؛ لأسباب تتعلق بالبعد عن الحرمين وصعوبة أداء المناسك، كما تتعلق بجهاد العدو وما يعانيه المسلمون من ويلات الحروب ومهاجمة دول النصارى(١٩٦).

ومدائح ابن الخطيب ومولدياته تدور حول معاني الحنين والتشوق للشرق والأماكن المقدسة، وفيها أيضا مدح للمصطفى صلى الله عليه وسلم وذكر فضائله ومولده وغزواته ونحو ذلك(١٩٧)، وابن الخطيب في ذلك سار على النهج الذي رسمه شعراء المديح في المشرق من قبله سواء في المعاني أو في بناء القصيدة، كما لا نعدم كثيراً من اللمحات الذاتية من الندم والتوبة وطلب الشفاعة والشعور بالذنب لعدم القدرة على زيارة الرسول صلى الله عليه وسلم وأداء المناسك والتفريط في ذلك.

وعند التعمق في قراءة مدائح ابن الخطيب مستندين على سبر نفسيته وما يعتلج فيها جراء الأحداث والتعقيدات النفسية التي مر بها تتكشف لنا دلالاتها وأبعادها النفسية البعيدة، وتتجلى أمامنا نفس تبحث عن ملجأ، وروح تفتش عن مأمن تأوي إليه وتستكين داخله هربا مما تعانيه في الخارج، وذلك كما سيأتي:

١/ الاحتماء الديني:

أهم الغايات النفسية التي نستشفها في مدائحه وتشوقاته خاصة؛ البحث عن الأمان لتلك النفس القلقة الخائفة بل المذعورة في أحايين كثيرة، اتخذ من المدائح النبوية ملاذا يبث فيه أوجاعه فتتجلى روحه المنكسرة، التي أصابها الملل والسقم، وشعرت بالحسرة وعمق الخسارة؛ فتحولت قصائده إلى مناجاة للذات، وهرب من الواقع، شاكيا حاله للرسول صلى الله عليه وسلم، راجيا منه أن يقيل عثرته ويغير

حاله، معلقا الآمال عليه، فكل السبل أغلقت أمامه ولم يعد أمامه أمل إلا في مناجاة الرسول عليه الصلاة والسلام وبث الدعوات والأمنيات، ويتضح ذلك في القصائد التي قالها في أوج الأزمة، إذ ينكشف أمامنا الانكسار والضعف، خيبة الأمل، الخسارة وبكاء الشباب والوحدة والغربة وغيرها من المعاني التي تكشف ما يدور داخله.

ولم يكن ذلك خاصا بلسان الدين؛ فالمديح النبوي في الأندلس انطبع بطابع القلق والالتجاء؛ لعوامل مرتبطة بالبيئة والمكان من الاضطراب السياسي وسقوط المدن والنكبات السياسية والعسكرية والاقتصادية؛ فكان الرسول–صلى الله عليه وسلم– الملجأ والملاذ في سبيل استرداد الأمان وإعادة الأوطان(١٩٨).

وقد رأينا القلق والضعف في مدحياته العامة؛ فلا شك أنها ستظهر أكثر في مدحياته النبوية ومولدياته؛ "لأن العامل الديني في النفس أقوى من العوامل الأخرى، فبه يصطبر الإنسان ويدفع عن روحه ما لا تطيق، وبه يتعلل أن الحياة الآخرة خير وأبقى"(١٩٩).

بعد عودته من المنفى الأول يكتب قصيدة طويلة مولدية يبعثها للغني بالله تكشف عن الصراع الذي يعيشه، وحالة القلق التي تمزقه، وهذه القصيدة تدل على الوضع النفسي الذي لم يصرح به لسان الدين ورغبته في الرحيل وترك الأندلس، وحالة فقد الأمل والسأم من الخدمة السلطانية، ومن الجو الخانق الذي ضاق به ذرعا، لذلك يقدم لها بقوله: "وعسى أن تكون محاءة لما تقدمها بحول الله"(٢٠٠)، وكأنه قد فرغ من الحياة وشعر بالخسارة والرجوع عن زيفها؛ فتأتي الاعترافات تباعا، لتكشف قلبا مثقلا منفطرا من تجلي الحقائق الموجعة له:

قَصفَتْ صَعْدَةَ انتصاري وفَلَّتْ ... غَرْبَ عَزْمي المعَدَّ يوم كِفَاحي
لم تَدَعْ لي من السِّلاحِ سوى مِغْـ ... ـفَر شَيْبٍ أَهْونْ به من

هكذا انتهت الحياة، تهاوت أسلحته ولم يتبق له إلا أضعفها، يا لها من خسارة وخيبة أمل بعد رحلة الحياة الشاقة، خسر معركته أمام جبروت الدهر وقسوته، وتزداد خيبة الأمل في التحسر على الشباب:

فكأنَّ الشَّبابَ طيفُ خيالٍ ... أو وَميضٌ خَبَا عُقَيبَ الْتِمَاحِ
ليلُ أنسٍ دَجَا وأَقْصِرْ بليلٍ ... جاذَبَتْ، بُرْدَهُ يَمِينُ صَباحِ(٢٠٢)

ما أقصر أيام الشباب؛ إنها مجرد طيف خيال أو ومضة ما أسرع ما خبت، هكذا ولت أيامه المورقة بسرعة، وينهال شعور الحسرة والأسف على وضعه، وتتضاءل داخله قيمة الأشياء؛ فيشعر بالخسارة الفادحة والنهاية المؤلمة الخالية من أي إنجاز:

أَسَفِي كم أرى طَرِيدَ ذُنُوبٍ ... أَوْبَقَتْنِي فليس لي من سَرَاحِ
قد غَزَتْنِي الخُطُوبُ غَزْوَ الأعادي ... وبَرَتْنِي الهُمُومُ بَرْيَ قِدَاحِ(٢٠٣)

ما أعظم الألم في هذه الصورة! صورة محتدمة لشخص طريد محاصر، تطارده ذنوبه وتغزوه الأعادي، وتفنيه الهموم والأحزان، حصار محكم لا تستطيع النفس انفكاكا منه:

قاطِعا في الغرورِ بُرْهَةَ عُمْرِي ... خَسِرَتْ صَفْقَتِي، وخابتْ قِدَاحِي
طَمِعَ الشَّيْبُ باللِّجامِ المُحَلَّى ... حينَ أجريتُ، أن يَرُدَّ جِمَاحِي(٢٠٤)

ما أمر هذا الشعور؛ الخسارة! نعم هكذا شعر ابن الخطيب، بعد هذه الرحلة الشاقة خسر الصفقة خسر الرحلة خسر المعركة خسر كل شيء، ويلح في هذه القصيدة على بكاء الشباب والشعور بالوحشة؛ فيختم القصيدة بالبكاء عليه كما بدأها به:

حين غَاضَ الشَّبابُ وارْتَجَعَ الفِكْرُ ... وضاق الخَطْوُ العَرِيضُ السَّاحِ
جُهْدُ قلبٍ لقَّفْتُ بعد جِهَادٍ ... نُقْطَةً من قَلِيبِهِ المُمْتَاحِ(٢٠٥)

ولذلك فالخلاصة تتجلى في التوبة:

ما لِشَيْخٍ سوى الرُّجــوعِ إلـــى الله	ونَجْــوَى أهــلِ التُّقَـــى والصَّـــلَاحِ
ولُزُومُ الباب الَّـــذي جَبَـــرَ الكَسْـــرَ	ووَصْـــلِ السُّـــؤالِ والإلحـــاحِ[٢٠٦]

نعم هنا يسدل الستار على حياته، يخسر معركة الحياة ويرتد عنها إلى حياة أخرى عله يفوز بشيء!

وهكذا نلحظ لغة ابن الخطيب الشعرية وارتباطها بحالته النفسية والوجدانية؛ فكلما تعقدت الحالة وتعمق شعوره بالخوف والحزن جاءت اللغة أكثر عمقا وإيحاء، يصل فيها "إلى أقصى حدودها انفعالا ورؤيا، جعل منها لغة تشتعل بالرموز الغنية التي تكشف عن ثراء الانفعالات الإنسانية ومشاعرها الجوهرية"[٢٠٧].

هذه القصيدة من أجمل قصائد لسان الدين وأكثرها نطقا بفكره وعواطفه، وهي وإن كانت في المولد النبوي وتضمنت أيضا مدح الغني بالله، إلا أننا نستطيع أن نقول إنها القصيدة التي تجلى فيها ابن الخطيب وتحسر وبكى وظهر فيها متشائما يائسا منكسرا فاقدا الرغبة في كل شيء، نفض جعبته كاملة، وكما قال عنها بعض الباحثين: "إنها من أروع اعترافات ابن الخطيب، إنها الأزمة النفسية الخانقة التي يستشعرها الشاعر وهو يخاطب الرسول في خشوع وضراعة وتوسل..."[٢٠٨].

وفي مدحية أخرى يرسلها للرسول عليه الصلاة والسلام عن الغني بالله بعد المنفى الأول عام أحد وستين وسبع مائة، يكشف في مقدمتها عن غربته:

دَعَاكَ بأقْصَى المغْـــرِبَيْنِ غَرِيـــبُ	وأنتَ على بُعْـــدِ المـــــَزَارِ، قَرِيـــبُ
مُـــدِلٌّ بأســـبابِ الرَّجَـــاءِ وطَرْفُـــهُ	غَضِيضٌ على حُكْمِ الحيَاءِ مُرِيبُ[٢٠٩]

يتوجه الخطاب مباشرة للنبي صلى الله عليه وسلم، ويقوم الخطاب على "المفارقة، التي تحدث توترًا لدى الشاعر، فالمزار بعيد، لكن أشواقه إليه تختصر

المسافات الخارجية، فيصير قريبا منه، هناك البعد المادي البدني وهنا القرب الروحي، إن روحه تسافر مع ركب الحجاج دائما"[٢١٠]، وإلحاح ابن الخطيب على هذه الرغبة في الحج يتردد كثيراً في شعره ونثره، الأمنية البعيدة التي لم تتحقق يوما، على الرغم من إلحاحه عليها، وربما يعكس ذلك شعوره بالغربة، وبحثه عن الأمان والملاذ الذي فقده في هذه الحياة ولم يجده سوى في العودة لله والالتجاء بالرسول عليه الصلاة والسلام.

وهو خطاب وراءه نفس تمزقها الغربة والشعور بالأسى؛ فتشيع في القصيدة روح الخيبة وفقد الأمل والحزن ولا يجد أمامه إلا التمني والاستفهام والحيرة:

ألا ليت شِعْرِي، والأماني ضَلَّةٌ ... وقد تُخْطِئ الآمالُ ثمَّ تُصِيبُ
أَيُنْجِدُ نَجْدٌ بعد شَحْطِ مَزَارِهِ ... ويَكْثُبُ بَعْدَ البُعْدِ منه كَثِيبُ
وتُقْضَى دُيُونِي بعدما مَطَلَ المَدَى ... ويَنْفُذُ بَيْعِي والمبيعُ مَعِيبُ
وهل أَقْتَضِي دَهْرِي فيُسْمِحُ طائعا ... وأَدْعُو بِحَظِّي مُسْمِعا فيُجِيبُ[٢١١]

إنها الأمنيات البعيدة، والصراع المستعصي مع الدهر، وهذه الأسئلة المتلاحقة تكشف عن الاستبعاد والانهزام في المعركة، هكذا يبدو لنا كيف فقد الحياة، والأمل وبدأ يعي أن الحياة قد سلبته كل شيء، ويسترسل مع شعوره وذكرياته وحنينه كما كان في القصيدة السابقة، حنين مؤلم وشوق للحجاز وتحسر على فوات ركب الحجيج، ويختم القصيدة بالخطاب الذي بدأ به؛ فيخاطب الرسول صلى الله عليه وسلم لائذا به معتذرا عن تقصيره في حقه:

فعُذْرا وإغْضَاءً ولا تنسَ صارِخا ... بعِزِّكَ يَرْجُو أن يُجِيبَ مُجِيبُ
وجاهَكَ بعد اللهِ نرجو وإنَّه ... لحظٌّ مَلِيء بالوفاءِ رَغِيبُ[٢١٢]

وفي قصيدة مدحية أخرى يصف نفسه بالوحيد من الأحباب:

وقل يا رسولَ الله عَبْـدٌ تقاصَـرَتْ خُطَاه وأضحى مـن أحبَّتِـه فَـرْدَا
ولم يستطعْ من بَعْدِ ما بَعُدَ المـدى سوى لَوْعَةٍ تعتاد أو مدْحَـةٍ تُهْـدَى
تَدَارَكْه يا غَـوْثَ العبـادِ برحمـةٍ فجُودُكَ ما أَجْدَى وكفُّكَ ما أَنْدَى[٢١٣]

ونلاحظ هنا أيضا المبالغة تلاحق أسلوب ابن الخطيب في مدحياته النبويـة كما كانت في مدحياته العامة؛ كما تسود روح التصوف؛ فجعل الرسول عليه الصلاة والسلام إلها وأسبغ عليه صفات الألوهية فيستجدي الرحمة والعطاء منـه، ويطلـب الغوث والإنقاذ منه عليه الصلاة والسلام.

والتوسل بالنبي – صلى الله عليه وسلم– وطلب شفاعته أحد عناصر المدحة النبوية عند لسان الدين؛ فالنبي – صلى الله عليه وسلم– الركن الذي يهرع إليه، وهذا العنصر يتسم بنغمة حزينة، وبالأسى في وسيلة التعبير عنه[٢١٤]، كما يعيد هذا الطلب في أبيات أخرى:

تَدَارَكْه يا غـوثَ العبـادِ برحمـةٍ يُقَضِّيهِ دَيْنَ العَفْـوِ منهـا غَرِيمُـه
أَيَجْهَرُ بالشَّـكوى وأنـتَ سَـمِيعُه أَيُعْلِـنُ بـالنَّجْوَى وأنـتَ عَلِيمُـه
أَتُعْـوِزُهُ السُّـقْيَا، وأنـتَ غِيَاثُـه أَتُتْلِفُـه البَلْـوَى وأنـتَ رَحِيمُـه
وقد بَثَّ منكَ اللهُ في الخَلْقِ رحمـةً فأُنْقِذَ عَانِيـه وأُثْـرِي عَدِيمُـه[٢١٥]

ومثل هذه الأبيات فيها دلالات على تمكن النزعة الصوفية في مـدائح ابـن الخطيب[٢١٦]، كما كان أسلوب قصائده المدحيـة وبناؤهـا متـأثرا أيضـا بـالأدب الصوفي[٢١٧]، وكذلك الأوصاف التي مدح بها النبي –صلى الله عليه وسلم– تضـفي على مديحه نفحة صوفية[٢١٨].

من المعاني الإيحائية التي نجدها في مدحيات لسان الدين الاعتراف بالضعف ووهن القوى:

وقد كُنْتُ جَلْدا قبل أن تُذْهِبَ النَّــوَى ذَمَايَ وأن تَسْتَأْصِلِ العَظْمَ والجِلْدَا[٢١٩]

وفيها يعلن فقد الصبر فضلا عن القدرة على النهوض:

وجاشَتْ جُيُوشُ الصَّبْرِ والبَيْنِ والأسى لديَّ، فكــان الصَّــبْرُ أضْــعَفَها جُنْــدَا
ورُمْتُ نُهُوضا، واعْتَزَمْــتُ مُوَدِّعَــا فصَدَّنِي المقدارُ عــن وِجْهَتــي صَــدّا
رقيــقٌ بَــدَتْ للمُشْــتَرِينَ عُيُوبُــه ولم تَلْتَفِتْ دَعْوَاهُ فاسْتَوْجَبَ الرَّدَّا[٢٢٠]

وتشيع في كثير من هذه النصوص الحسرة على ذهــاب العمــر، ونتــذكر أشعاره الزهدية التي كان يعظ فيها بعدم جدوى الحسرة والحزن، ولكن هنا يبــدو أن سنواته الأخيرة قضت على جلده وصبره:

إلى كم أراني فــي البِطَالــةِ كَانِعــا وعُمْرِي قد ولَّى ووِزْرِيَ قــد عُــدَّا
تَقَضَّى زماني في لعلَّ وفي عســى فلا عَزْمَةٌ تُمْضَى ولا لوعــةٌ تَهْــدَا
حسامُ جَبَــانٍ كُلَّمــا شِــيمَ نَصْــلُه تراجَعَ بعد العَزْمِ والْتَزَمَ الغِمْدَا[٢٢١]

وينتهي إلى قوله:

إلى أن أَحُطَّ الرَّحْلَ في تُرْبِكَ الَّــذي تضوَّعَ نِــدا مــا رَأَيْنــا لــه نِــدّا
وأُطْفِئَ في تلــك المــوارِدِ غُلَّتِــي وأُحْسِبَ قُرْبا مهجةً شَكَتِ البُعْدَا[٢٢٢]

إذن إطفاء كل ذلك الألم لا يتأتى إلا بزيارة المصطفى صلى الله عليه وسلم، وهو الأمر الذي ألح عليه لسان الدين كثيرا، واعتذر عنه كثيرا -أيضــا- بموانــع كثيرة؛ "تبقى دائما مبهمة عند الشاعر؛ فتارة هي الأحداث المعوقة، وتارة هي العجز والشيخوخة، وتارة هي الأقدار المسيرة... كلها قيود تشــد الشــاعر، وتحــول دون تحقيق رغائبه، الالتحاق بالركب الحجيجي، ومع ذلك فهو لا يبرئ نفسه مــن تهمــة التقصير وإظهار إحساسه الداخلي بالجناية وعذاب الضمير"[٢٢٣].

٢/ الحنين:

حفلت مقدمات مدحيات لسان الدين بالأماكن المشرقية والحنين لنجد والحجاز، والرحلة الحجازية بما تتضمنه من الشوق والحنين للديار المقدسة وزيارة النبي صلى الله عليه وسلم، وذكر أعباء الرحلة والمشقة التي يلاقيها الركب للوصول إلى هذه الديار، ويصور فيها نفسه وهي تفيض بمشاعر الحنين والشوق، وتكابد آلام البعد والفراق، ولا تخلو هذه المقدمات من الترميز لحب النبي بحب "سعدى، ودعد"، وغير ذلك مما يشيع في المقدمات الحجازية والغزلية(٢٢٤).

وأهم عوامل الحنين لدى الشاعر الأندلسي بشكل عام تعود إلى إحساسه "بعدم الاستقرار في المنفى مما يدفعه إلى مقارنة الحاضر بالغابر وأرض الوطن الأصيل بأرض الوطن البديل...، ومنها ما يقوم على الحيرة والذهول ورفض الواقع الجديد الذي حدث فيمزج الشاعر بين تلك المعاني وبين أحاسيسه بالهزيمة بحيث يستطيع أن يجسد حنينه اليأس أكثر مما يجسد أمله بالعودة"(٢٢٥).

وفي مدحيات لسان الدين ومولدياته يصطبغ الحنين لديه بطابع الحزن واللوعة، والتي يمكن أن نستشف من ورائهما دلالاتهما الرمزية على شعوره بالفقد والشوق لموطنه ولأيام مجده؛ فربما يكون هذا الحنين لنجد والحجاز وكل ما يتعلق بالمشرق هو رمز لغرناطة، لوطنه وأيام مجده، وهنا تتداخل لديه الأزمنة والأمكنة، مما يكشف من بعيد عن النفسية المحطمة المرتبطة بماضيها الجميل، بربوع الأندلس وأيام مجده التليد، وهذه الخاصية نجدها عند ابن الخطيب خاصة؛ إذ يتداخل لديه الديني بالدنيوي، والحنين إلى الأندلس بالحنين إلى الديار المقدسة وعهد النبوة(٢٢٦).

وهذا جواب لبعض الباحثين الذين استغربوا ظاهرة خاصة في شعر لسان الدين، وهي ظاهرة البكاء والدموع؛ ففي شعره نجد عين الإنسان ترسل فيضها باستمرار، وإذا عرض لها عارض أقام السحاب مقامها في إرسال الدمع، وفي بعض الأحيان تعمل العينان معا(٢٢٧)؛ فهذه الدموع والحزن والرموز والدلالات تكشف

الحالة النفسية التي وقع الشاعر تحت أوارها، وهنا يتجلى الضعف والاغتراب عنده وارتباطه بالنفي والوحشة التي عاشها بكل قسوتها بعد الأحداث المريرة التي اختصته بها الأيام.

والحنين غالبا يشكل مقدمات قصائده، ومن هذه المقدمات:

تألَّقَ نَجْدِيّا فأذْكَرَنِي نَجْدَا وهَاجَ لِيَ الشَّوقَ المُبَرِّحَ والوَجْدَا
وَمِيضٌ رأى بُرْدَ الغَمَامَةِ مُغْفَلا فمدَّ يَدا بالتِّبْرِ أعْلَمَتِ البُرْدَا(٢٢٨)

ويزداد تأثير الحنين؛ فهذه الأشواق تؤلمه وتثير أشجان روحه الحزينة غير المتماسكة:

بَرَانِيَ شَوْقٌ للنَّبِيِّ مُحَمَّدٍ يَسُومُ فؤادي بَرْحُهُ ما يَسُومُه
ألا يا رسولَ الله ناداك ضارعٌ على البُعْدِ محفوظُ الوداد سَلِيمُه
مَشُوقٌ إذا ما اللَّيلُ مدَّ رِوَاقَه تَهُمُّ به تحتَ الظَّلامَ هُمُومُه(٢٢٩)

كما يصطبغ بالظاهرة التي أشرنا لها سابقا من كثرة الدموع وما يرتبط بها من الدعاء بالسقيا لهذه الأماكن:

فَبِتُّ، وجَفْنِي من لآلئ دمْعِه غَنِيٌّ، وصَبْرِي للشُّجُونِ سَلِيبُ
تُرَنِّحُنِي الذِّكْرَى ويَهْفو بِيَ الجَوَى كما مالَ غُصْنٌ في الرِّياض رطيبُ(٢٣٠)

ويظهر ابن الخطيب هنا "شاعراً إنسانياً يتخطى الأمكنة والأعصر والأعراق إلى ما هو أشمل وأوسع وأعمق"(٢٣١).

وهكذا تتكرر لديه هذه النصوص الموغلة في الحنين والشوق، مما يشعرنا "بهذا الانجذاب القوي المستقطب لكل حواس الشاعر، نحو تلك الأماكن المشرقية حيث يعددها واحدة تلو أخرى، محصيا نباتها، كالشيح والبان والرند، مستلذا

تكرارها، متخيلا أنه قد عاش فعلا في تلك الأماكن ثم تغير الزمن وأصبحت أطلالا"[٢٣٢].

٣/ الاحتماء السياسي:

عندما ننظر في قصيدة المديح النبوي في شعر لسان الدين "يطالعنا فيها عنصران: الأول ثابت يتعلق باستعراض سيرته صلى الله عليه وسلم مع التركيز على جانب المعجزات فيها، والثاني طارئ هو مدح السلطان-سلطان الدولة في العصر وحثه على الجهاد خصوصا في المولديات والعيديات"[٢٣٣]،

كانت بعض مدائح لسان الدين النبوية لونا من التقرب السياسي[٢٣٤]؛ وإرضاء للسلاطين الذين اهتموا بالميلاد النبوي وأقاموا الاحتفالات بهذه المناسبة؛ وبدأ ذلك في القرن السابع الهجري، وذلك لمقاومة الاحتفال بالأعياد المسيحية، حتى أصبح هذا الاحتفال عيدا رسميا على المستويين الرسمي والشعبي، واتخذ في القرن الثامن الهجري من مظاهر الفخامة ما أصبح به من أعظم الأعياد الإسلامية[٢٣٥]، وأقوى من ذلك أن المولديات لقيت تشجيعا من السلطة معتقدة أن تذكير المسلمين بجذورهم ومقدساتهم من شأنه أن يقوي الصلة بينهم وبين الرعية؛ فكان الحاكم يحضر الاحتفال ويكافئ خطباء المولد وشعراءه[٢٣٦].

ومن العوامل التي زادت الاهتمام بهذا العيد، وما رافقه من أدب نثري وشعري ما قدر للفكر الصوفي من انتشار عظيم بين أوساط المسلمين[٢٣٧]، إذن لا شك أن ابن الخطيب ستكون له مشاركات في مثل هذه الاحتفالات تقربا للسلطة في الأندلس والمغرب، وإرسال رسالة ضمنية لهم من خلال هذه المدائح وتقوية فكرة مهمة تتعلق بالشفاعة والتوسل بالحكام وليس بالرسول صلى الله عليه وسلم فحسب؛ ولذلك نجد كثيرا من مدائحه قالها في هذه الاحتفالات، وكان هدفه من هذا التقرب من خلال المدائح النبوية غرس بعض المفاهيم لدى هؤلاء الملوك وتقوية بعض

الأفكار؛ أهمها الشفاعة والتوسل، ولذلك نستطيع بكل اطمئنان أن ندرج كثيرا منها ضمن دائرة الاحتماء والالتجاء التي اندرج تحتها كثير من مدائحه العامة.

فمن خلال تلك المدائح كان يحاول تثبيت مفهوم الشفاعة وتوجيهها لتكون دينية يذعن الإنسان لها حاكما ومحكوما إذ إنه محتاج إلى شفاعة النبي –صلى الله عليه وسلم– ورحمته يوم الدين، كما عمل على وصل مفهوم الشفاعة السياسية بالنبي لتتخذ طابع استجابة ملزمة، فحين يشفع النبي –صلى الله عليه وسلم– فلا بد أن يقتدي به السلاطين ويتحلوا بما تحلى به عليه الصلاة والسلام(٢٣٨)؛ فكأنه يرسل لهؤلاء الحكام رسائل مبطنة بوجوب أن يشفعوا له اقتداء بالنبي صلى الله عليه وسلم وتقربا له لينالوا شفاعته.

ولذلك نجد كثيراً من مدائحه النبوية يمتزج فيها مدح السلاطين مع مدح الرسول صلى الله عليه وسلم؛ فكأنه يريد أن يستحثهم للاقتداء بالرسول بمده بالشفاعة والأمان، وأن يكونوا ملاذا لكل مستغيث، ومما يؤيد ذلك أن نجده يركز في مدائحه للغني بالله على نسبه الذي يعود للخزرج وكأنه يذكره بالوشائج التي تربطهما:

وحَسْبِي عُلى أنِّي لصَحْبِكَ مُنْتَمٍ وللخَزْرِجيِّين الكِرامِ نَسِيبُ(٢٣٩)

فهو يخاطب حكام غرناطة ويذكرهم أنهم لا بد أن يثبتوا أنهم متصلون نسبا وخلقا بالنبي صلى الله عليه وسلم؛ كي "يحقق لغاية الشفاعة أقصى ما يستطيعه من عوامل الاقتداء والتثبيت"(٢٤٠).

وفي قصيدته التي يرسلها من (سلا) إلى فاس؛ إلى أبي سالم المريني، يستجير بالرسول صلى الله عليه وسلم، مظهراً احتياجه لجوده وأمانه:

تَدَارَكْه يا غوثَ العبادِ برحمةٍ يُقَضِّيه دَيْنَ العَفْوِ منها غَرِيمُه
أيَجْهَرُ بالشَّكوى وأنتَ سَمِيعُه أيُعْلِنُ بالنَّجْوى وأنتَ عَلِيمُه(٢٤١)

ويطيل في مدح الرسول وذكر ما وهبه الله من فضل ومعجزات ومزية على الخلق، ثم يعود إلى الشكوى من الزمان ليستجير بأبي سالم:

فـــآوِ طَرِيـــدا عائـــذا أنـــتَ كَهْفُـــه وذِكْرُكَ بالمـــدحِ الصَّـــريحِ رَقِيمُـــه
رعى اللهُ عَهْدا في رضـــاك ومَأْلَفـــا مُلُوكُ العُلَى تُعْنَـــى بـــه وتُقِيمُـــه(٢٤٢)

وهكذا تنتهي رحلتنا في شعر لسان الدين بن الخطيب؛ رأينا من خلالها كيف تجلت عبقريته وعظمته في صموده وتماسكه على الرغم من الخيبـــات والدســـائس والحرب الدائمة ضده، دفعته كبرياؤه وعزة نفسه وموروثـــه العلمـــي والاجتمـــاعي والروحي والسياسي إلى الأمام، وساعدته على التماسك والصمود والمضي قدما فـــي وجه الحاقدين الكارهين الذين عفا عليهم الزمن وظل لسان الدين شامخا حتى اليوم.

ظل لسان الدين قويا وإن ظهر لبعضهم ضـــعيفا بمـــا كتبـــه مـــن مـــديح فيه بعض التملق والغلو، ولكن ذلـــك لـــم يكـــن إســـفافا أو ضـــعفا بـــل فرضـــته ظروف الدهر وشـــدة وطأتـــه عليـــه، الشـــاعر العظـــيم والفيلســـوف، والمـــؤرخ الكبير، اضـــطرته الحيـــاة أن يحـــارب بكـــل أســـلحته؛ فظهـــر زاهـــدا متبـــتلا منكسرا، وظهر مرة أخرى معتزا بنفســـه مكـــابرا معانـــدا، واســـتعطف وانتجـــع مرات أخرى، وفي كل كان يحاوطـــه الرضـــا والقناعـــة، ولـــم تفارقـــه الكبريـــاء والثقة، مدرسة عظيمة لكـــل إنســـان؛ فقـــد ظـــل "بـــين تيـــاري الجـــزر والمـــد والشعور الصاعد والإحساس الصامد فـــي أروع صـــورة للإنســـان فـــي كبواتـــه وصعداته تمثل كفتين تتراجحان ضـــمن الواقـــع الحلـــو المـــر فـــي هـــذه الحيـــاة الساخرة الماكرة"(٢٤٣).

إن هذا الدرس العظيم الذي قدمه لسان الدين للإنسانية في الصمود والتماسك وعدم الهبوط إلى ظلام اليأس والتشاؤم ليضاف إلى إرثه العلمي والتاريخي والأدبي الذي قدمه لنا.

ويمكن إبراز ما جاء في هذه الدراسة من خلال النقاط الآتية:

- في شعر لسان الدين أربعة مستويات من القوة إلى الضعف:

الأول: التظاهر بالقوة، وتجلى ذلك في أشعار الزهد والحكمة والفلسفة واعتزال الحياة السياسية.

الثاني: الحزن والتألم وفقدان الصبر والتماسك، وتجلى ذلك في حالات الفقد وتنكر الوطن.

الثالث: حزن خفي وانكسار من وراء الحجب، ظهر من خلال استقراء الدلالات الرمزية والمعاني الثانوية في شعره الديني على وجه الخصوص.

الرابع: مجاهرة بالضعف والخسارة والانكسار والاحتياج، وذلك في قصائد المديح التي دبجها في المنفى، وتزداد حدتها كلما اشتدت وطأة الأيام عليه.

- أهم التغيرات التي طرأت على شعره بعد تعرضه للأزمات:
- تغير دلالة مفردات الدهر والزمن لديه، مع إكثار من شعر الشكوى والحنين.
- انتشار المبالغة والغلو في شعره المدحي.
- كثرة مفردات الضعف والانكسار والاحتياج.
- التوسل بالقبور والأولياء الصالحين الأحياء والأموات.

الهوامش

(١) ينظر: د. عبد الله بن علي ثقفان، الشكوى من العلة في أدب الأندلسيين، مكتبة التوبة، الرياض، الطبعة الأولى (١٤١٧هـ-١٩٩٦م)، ص: ٢٥.

(٢) ينظر: د. لؤي علي خليل، الدهر في الشعر الأندلسي دراسة في حركة المعنى, هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث، دار الكتب الوطنية، الطبعة الأولى (٢٠١٠م)، ص: ١٧٩ (نقلا عن كتاب الرؤى المقنعة، كمال أبو ديب).

(٣) ينظر: المرجع السابق، ص: ١٨٣.

(٤) د. أحمد مختار العبادي، لسان الدين بن الخطيب وكتاباته التاريخية، عالم الفكر، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، المجلد ١٦، العدد ٢ (١٩٨٥م)، ص: ٣٢، وينظر: ص: ٣٥.

(٥) من تقديمه لكتاب لسان الدين بن الخطيب, الإحاطة في أخبار غرناطة, مكتبة الخانجي, القاهرة، الطبعة الثانية (١٣٩٣هـ-١٩٧٣م), ص: ٣٦.

(٦) ينظر: د. محمد رزوق، الأندلسيون وهجراتهم إلى المغرب خلال القرنين ١٦-١٧، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، ص: ٤٢، وما بعدها.

(٧) الديوان، صنعة وتحقيق: د. محمد المفتاح, دار الثقافة, الدار البيضاء, الطبعة الأولى (١٤٠٩هـ -١٩٨٨م)، ص: ١١١.

(٨) الديوان, ص: ٤١٥.

(٩) د. رابح عبد الله المغراوي، ابن الخطيب الأندلسي من الانقلاب إلى الاغتيال (٧٦٠هـ-٧٧٦هـ) (١٣٥٩م-١٣٧٤م), مجلس النشر العلمي، جامعة الكويت، الحولية ٢٦، الرسالة ٢٤٧ (١٤٢٧هـ-٢٠٠٦م)، ص: ٧١.

(١٠) محمد عبد الله عنان، من تقديمه لكتاب لسان الدين بن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة، ص: ٣٥.

(١١) ينظر: المصدر السابق، ص: ٤٧.

(١٢) ابن خلدون، التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا، منشورات دار الكتاب اللبناني (١٩٧٩م)، ص: ١٦٢.

(١٣) عبد العزيز بن عبد الله، الفلسفة والأخلاق عند ابن الخطيب، دار الغرب الإسلامي, بيروت, الطبعة الثانية (١٤٠٣هـ- ١٩٨٣م), ص: ١٤٠.

(١٤) المرجع السابق، ص: ٣٦.

(١٥) ينظر: د. يوسف عيد، أصوات الهزيمة في الشعر الأندلسي، دار الفكر اللبناني، بيروت، الطبعة الأولى (١٤١٤هـ-١٩٩٣م)، ص: ١٧.

(١٦) ينظر اختلاف الباحثين حول ذلك: سعيد بن مسفر المالكي ، المِدحة في شعر لسان الدين بن الخطيب الغرناطي (ت٧٧٦هـ): البعد والتشكيل (رسالة ماجستير), كلية اللغة العربية, جامعة أم القرى (٢٠١٧م), ص: ٥٦، وما بعدها.

(١٧) كتب ابن الخطيب في ذم الدنيا الشيء الكثير ينظر حول ذلك: (د. عبد العزيز بن عبد الله، ص: ١٣١، وما بعدها).

(١٨) حول استكثاره من الأموال والعقار ينظر: لسان الدين بن الخطيب, الإحاطة في أخبار غرناطة: ٤/ ٤٤٣-٤٤٤، وأبو العباس أحمد بن خالد الناصري، الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، تحقيق: جعفر الناصري، ومحمد الناصري، دار الكتاب، الدار البيضاء (١٤١٨هـ-١٩٩٧م)، ٤/ ٥٩، وابن خلدون، ص: ٩٦، ومحمد عبد الله عنان، دولة الإسلام في الأندلس، مكتبة الخانجي، القاهرة، الطبعة الرابعة (١٤١٧هـ-١٩٩٧م)، ٤/١٤٥، ود. أحمد مختار العبادي، ص: ٣٥، وفاغية السعدية، شخصية ابن الخطيب من خلال كتابه نفاضة الجراب في علالة الاغتراب، مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة عبد الملك السعدي، العدد ٢ (١٩٨٧م)، ص: ١٤٥.

(١٩) د. محمد مفتاح, من تقديمه لديوان ابن الخطيب, ص: ٦٦.

(٢٠) د. نبيل خالد الخطيب، لسان الدين بن الخطيب ٧١٣-٧٧٦هـ/ ١٣١٣-١٣٧٤م نثره وشعره وثقافته في إطار عصره، دار النهضة العربية، بيروت، الطبعة الأولى (١٤٣٤هـ-٢٠١٣م)، ص: ٢٢١.

(٢١) قديري جميلة، الفناء الصوفي في الأدب الأندلسي مقاربة تأويلية -في نماذج من الفتوحات المكية- تحت مشروع الأدب الأندلسي في ضوء المناهج النقدية المعاصرة (رسالة ماجستير)، كلية الآداب واللغات والفنون، جامعة وهران (٢٠٠٩-٢٠١٠م)، ص: ٢٥.

(٢٢) ناقش الدكتور نبيل خالد الخطيب النزعة الصوفية في شخصية ابن الخطيب وفي شعره في كتابه، للاستزادة ينظر: (ص: ٢٨١، وما بعدها).

(٢٣) ينظر: عبد العزيز بن عبد الله، ص: ٣٤-٣٥.

(٢٤) ينظر: محمد زمامة، متى وأين تصوف ابن الخطيب؟ مجلة المعهد المصري للدراسات الإسلامية، مدريد، المجلد ٢٨ (١٩٩٦م) ص: ٧٨-٧٩.

(٢٥) ويتبدى ذلك في تقديمه المتأخر لأشعاره المتقدمة، وأحكامه النقدية بشكل عام، ينظر: (د. فاروق اسليم، مفهوم الشعر وبواعثه في ديوان لسان الدين بن الخطيب، مجلة جامعة دمشق، المجلد ٢٣، العدد ٢، ٢٠٠٧م، ص: ٦٧).

(٢٦) الديوان, ص: ١٠٠.

(٢٧) صنعة: السكري روايته عن أبي جعفر محمد بن حبيب, شعر الأخطل أبي مالك غياث بن غوث التغلبي، تحقيق: د . فخر الدين قباوة، دار الفكر، بيروت، الطبعة الرابعة (١٤١٦هـ-١٩٩٦م), ص: ١٣٥.

(٢٨) الديوان، ص: ٤٣٨.

(٢٩) محمد عبد الله عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ١٤٦/٦.

(٣٠) الديوان، ص: ٧٧١.

(٣١) ينظر: د. منور محمد الحربي، جمالية اللون الأبيض في شعر لسان الدين بن الخطيب، المجلة الأردنية في اللغة العربية وآدابها، المجلد ١٥، العدد ١ (٢٠١٩م)، ص: ١٤٥.

(٣٢) الديوان، ص: ٢٣٥-٢٣٦.

(٣٣) المصدر السابق، ص: ٢٣٦.

(٣٤) د. نبيل خالد الخطيب، ص: ٢٢٤.

(٣٥) أبو العباس أحمد بن خالد الناصري، ص: ١٣/٤.

(٣٦) الديوان، ص: ٥٠٩-٥١٠.

(٣٧) المصدر السابق، ص: ٥٠٨.

(٣٨) عبد العزيز بن عبد الله، ص: ٢٩.

(٣٩) ينظر: د. لؤي علي خليل، ص: ٦٩.

(٤٠) الديوان، ص: ١٢٧.

(٤١) المصدر السابق, ص: ٣٩٧.

(٤٢) سيرد ذلك في المبحث الخاص بالمديح.

(٤٣) الديوان, ص: ٤٦٣، وينظر: ص: ١٧٧، ١٨٧، ٥٥٨، ٧٠٢.

(١) المصدر السابق, ص: ٥١٢.

(٤٥) المصدر السابق، ص: ٣٩٦، وينظر: ص: ١٤٤، ٦١٠.

(٤٦) ينظر: د. لؤي علي خليل, ص: ٧٦.

(٤٧) الديوان، ص: ٥٧٢.

(٤٨) ينظر: د. لؤي علي خليل، ص: ٧٢.

(٤٩) الديوان، ص: ٥٧٣، وينظر: ص: ٣٢٥، ٣٩٦، ٤٤١، ٥٨٨.

(٥٠) ينظر: د. لؤي علي خليل، ص: ٧٠.

(٥١) الديوان، ص: ١٧٧.

(٥٢) المصدر السابق، ص: ١٢٧.

(١) سيأتي بالتفصيل في مبحث المديح النبوي، ص: ٥٥.

(٥٤) الديوان، ص: ٣٤٧.

(٥٥) أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام وما يتعلق بذلك من الكلام، تحقيق: سيد كسروي حسن، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى (١٤٢٤هـ-٢٠٠٢م)، ٢٦٩/٢.

(٥٦) ينظر: محمد عبد الله عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ٦/ ٤٧٢.

(٥٧) من أهم هذه الحقائق شعوره بخطر الفناء الذي ينتظر الأندلس، سبقت الإشارة إلى ذلك في هذا البحث, ص: ٥.

(٥٨) أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام وما يتعلق بذلك من الكلام ، ٢٧٠/٢.

(٥٩) أبو العباس أحمد بن خالد الناصري، ١٣/٤.

(٦٠) ينظر: المصدر السابق، ٢٠/٤.

(٦١) ينظر: محمد زمامة، ص:٧٩، وينظر: محمد عبد الله عنان، من تقديمه لكتاب الإحاطة في أخبار غرناطة، ص:٣١.

(٦٢) ينظر: فاغية السعدية، ص: ١٣٤-١٣٥.

(٦٣) أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام وما يتعلق بذلك من الكلام ، ٢/ ٢٧٢.

(٦٤) الإحاطة في أخبار غرناطة، ٢٥٢/١-٢٥٣، وينظر: لسان الدين بن الخطيب, أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام وما يتعلق بذلك من الكلام, ٢٧٣/٢، وابن خلدون، ص: ١٣٨، وفي ص: ١٤٩ يشير إلى فراره من الأندلس، وهناك دراسات مستفيضة وآراء كثيرة حول هذا الجانب في حياة لسان الدين, ينظر: (د. رابح عبد الله المغراوي، ص: ١٤٤، وسعيد بن مسفر المالكي، ص: ٩٥، وما بعدها، وغير ذلك).

(٦٥) ينظر: عبد العزيز بن عبد الله، ص: ٧٢.

(٦٦) ينظر: سعيد بن مسفر المالكي، ص: ٩٨.

(٦٧) ينظر: د. رابح عبد الله المغراوي، ص: ٢٢١.

(٦٨) ينظر: المرجع السابق ص: ١٨٠.

(٦٩) عبد العزيز بن عبد الله، ص:٣٦.

(٧٠) سيمر معنا هذا الجانب بالتفصيل عند الحديث عن أهداف المديح في شعر ابن الخطيب.

(٧١) الديوان، ص: ٣٢٦.

(٧٢) المصدر السابق، ص: ١٤٩.

(٧٣) لم يحظ الغني بالله بمكانة لدى ابن الخطيب تضاهي مكانة أبيه، بل كان هناك بعض العزوف النسبي والتعالي الذي انتهى إلى تركه وترك الأندلس في النهاية, ينظر حول ذلك: (سعيد بن مسفر المالكي، ص: ٩٢، وما بعدها؛ فقد خصص الباحث صفحات كثيرة مفصلا تقلبات العلاقة بينهما).

(٧٤) الديوان، ص: ٧٤٦.

(٧٥) استعان عدد من سلاطين بني مرين بالأندلسيين في مناصب سياسية وعسكرية وعلمية، وبخاصة مع استمرار هجرة الأندلسيين للمغرب من فئات متعددة: علماء وأدباء وأطباء. ينظر: (د. محمد رزوق، ص: ٤٢).

(٧٦) فاغية السعدية، ص:١٣٤، وربما يرتبط ذلك بما شهر عند الأندلسيين وتعاليهم على المغاربة، ينظر حول الصراع السياسي الحضاري بين الشعبين: (د. محمد رزوق، ص: ٢٨، وما بعدها، ود. لؤي علي خليل، ص: ٥٢).

(٧٧) ينظر حول ذلك بالتفصيل: قديري جميلة، ص: ٤٤، وما بعدها.

(٧٨) د. سعد إسماعيل شلبي، البيئة الأندلسية وأثرها في الشعر عصر ملوك الطوائف، دار نهضة مصر، القاهرة (١٩٧٨م)، ص: ٧٥، وينظر: د. لؤي علي خليل، ص: ٥٣.

(٧٩) ينظر: عبد العزيز بن عبد الله، ص: ٣٦.

(٨٠) ينظر: د. عبد الله بن علي ثقفان، ص: ٩.

(٨١) ينظر: د. لؤي علي خليل، ص: ٥٩.

(٨٢) ينظر: المرجع السابق، ص: ٤٨.

(٨٣) ينظر: سعيد بن مسفر المالكي، ص: ٥٤.

(٨٤) استعرت هذا المصطلح من دراسة: (أحمد علي عمر، المؤثرات الإسلامية في أدب لسان الدين بن الخطيب ٧١٣-٧٧٦هـ، رسالة دكتوراه، كلية الدراسات العليا، جامعة أم درمان الإسلامية، ١٤٣٨هـ-٢٠١٧م)، وهو يتناسب مع طبيعة هذه الدراسة.

(٨٥) الديوان، ص: ٦٠٩.

(٨٦) المصدر السابق، ص: ٦٥٩-٦٦١.

(٨٧) المصدر السابق، ص: ٦٥٩.

(٨٨) المصدر السابق، ص: ٦٦٠.

(٨٩) المصدر السابق، ص: ١٠٧.

(٩٠) المصدر السابق، ص: ١٠٧.

(٩١) المصدر السابق، ص: ١٠٧.

(٩٢) المصدر السابق، ص: ٥٠٥-٥٠٦.

(٩٣) د. عدي الحربش، سلسلة تغريدات.

(٩٤) الديوان، ص: ٥٠٦-٥٠٥.

(٩٥) د. عدي الحربش، سلسلة تغريدات.

(٩٦) د. نبيل خالد الخطيب، ص: ٢٨٢.

(٩٧) ينظر: عبد العزيز بن عبد الله، ص: ١٣٠.

(٩٨) الديوان، ص: ١٨٥.

(٩٩) المصدر السابق، ص: ١٨٥.

(١٠٠) المصدر السابق، ص: ١٨٥.

(١٠١) د. فاضل فتحي والي، الفتن والنكبات الخاصة وأثرها في الشعر الأندلسي، دار الأندلس، حائل، الطبعة الأولى (١٤١٧هـ-١٩٩٦م)، ص: ٤٠٣.

(١٠٢) يرى بعض المؤرخين أن ابن الخطيب عندما شعر بالسعايات ضده، رسم سياسة مختلفة، قوامها الارتباط بفاس، وإرضاء سلاطين بني مرين في كل ما يطلبونه من مملكة غرناطة, ينظر: (د. أحمد مختار العبادي، ص: ٣٨-٣٩، ٤٤)، وقد رد على هذا الاتهام عبد العزيز بن عبد الله، في كتابه, ينظر: (ص: ٧٠-٧٢).

(١٠٣) ينظر: عبد العزيز بن عبد الله، ص: ٧١.

(١٠٤) الديوان، ص: ١٨٦.

(١٠٥) المصدر السابق، ص: ٥٧٣، وله أخرى على لسان الغني بالله، ينظر: (ص: ٦٢١).

(١٠٦) المصدر السابق، ص: ٥٥٦.

(١٠٧) المصدر السابق، ص: ٦٢١-٦٢٢.

(١٠٨) المصدر السابق، ص: ٦٢٢.

(١٠٩) المصدر السابق، ص: ٦٢٢.

(١١٠) المصدر السابق، ص: ٤١٤.

(١١١) المصدر السابق، ص: ٤١٥

(١١٢) المصدر السابق، ص: ٥٩٣.

(١١٣) المصدر السابق، ص: ٥٩٣.

(١١٤) د. فاضل فتحي والي، ص: ٣٨٣.

(١١٥) الديوان، ص: ٧٧٣.

(١١٦) المصدر السابق، ص: ٧٧٣.

(١١٧) المصدر السابق، ص: ٧٧٣.

(١١٨) المصدر السابق، ص: ٧٧٣.

(١١٩) المصدر السابق، ص: ٧٧٤.

(١٢٠) المصدر السابق، ص: ٧٧٤.

(١٢١) المصدر السابق، ص: ١٤١.

(١٢٢) المصدر السابق، ص: ١١١.

(١٢٣) المصدر السابق، ص: ١١١.

(١٢٤) المصدر السابق، ص: ٥٩٣.

(١٢٥) د. فاضل فتحي والي، ص: ٣٨٣-٣٨٤.

(١٢٦) ينظر: د. نبيل خالد الخطيب، ص: ٢٦٢.

(١٢٧) ابن خلدون، ص: ١٥٨.

(١٢٨) ينظر: أعمال الأعمال فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام وما يتعلق بذلك من الكلام، ١٤/٢.

(١٢٩) الديوان، ص: ٤٣٢.

(١٣٠) المصدر السابق، ص: ٤٣٢.

(١٣١) ينظر: سعيد بن مسفر المالكي، ص: أ.

(١٣٢) ينظر: المرجع السابق، ص: ٤٤، وما بعدها. وشعراء القرن الثامن بشكل عام كانت لهم مشاركة فاعلة في تدعيم النشاط السياسي في مملكة غرناطة، ينظر: (ص: ١٦، وما بعدها من هذا الكتاب).

(١٣٣) ينظر: د. محمد مفتاح، من تقديمه لديوان ابن الخطيب، ص: ٣١.

(١٣٤) محمد عبد الله عنان، من تقديمه لكتاب لسان الدين بن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة، ص: ٤٦.

(١٣٥) المصدر السابق، ص: ٤٦-٤٧.

(١٣٦) د. نبيل خالد الخطيب، ص: ١١٦.

(١٣٧) المرجع السابق، ص: ٢٠٤، وقد رد عبد العزيز بن عبد الله على أصحاب هذا الرأي في كتابه، ينظر: (ص: ١٢٣-١٢٤).

(١٣٨) وابن الخطيب ليس بدعا في ذلك؛ فقصيدة المديح في الشعر العربي عامة تقوم على إظهار الاحتياج للممدوح، وضعف المادح مقابل ذلك، مع التفاوت بين الشعراء في ذلك.

(١٣٩) أحمد علي عمر، ص: ٢٦٥.

(١٤٠) المرجع السابق، ص: ٢٦٦.

(١٤١) ينظر: د. نبيل خالد الخطيب، ص: ١١٧، وفاغية السعدية، ص: ١٤١-١٤٢.

(١٤٢) د. فاضل فتحي والي، ص: ٣٩٨.

(١٤٣) ينظر: د. قاسم الحسيني، الرؤية النقدية في الإبداع الشعري الأندلسي (قراءة في المكونات)، دار أبي الرقراق، الرباط، الطبعة الأولى (٢٠١٦م)، ص: ١٢٢-١٢٣.

(١٤٤) وقد بلغت إحدى وخمسين مدحة، وهو أكثر عدد من المدائح وبذلك يكون أبو الحجاج أكثر من نال مدائح لسان الدين، ينظر حول ذلك: (د. محمد مفتاح, من تقديمه لديوان ابن الخطيب، ص: ١٧-١٨، وسعيد بن مسفر المالكي، ص: ٧٥ وما بعدها).

(١٤٥) سعيد بن مسفر المالكي، ص: ٥٤.

(١٤٦) ينظر: المرجع السابق، ص: ٧٨، وما بعدها.

(١٤٧) سبقت الإشارة إلى طبيعة علاقة ابن الخطيب والغني بالله، ينظر: الحاشية, ص: ١٥ من هذا البحث.

(١٤٨) الديوان، ص: ٥٠٤-٥٠٥، وينظر: قصيدة أخرى ص: ٥٩٩.

(١٤٩) المصدر السابق، ص: ٥٠٥.

(١٥٠) ينظر: أحمد علي عمر، ص: ٢٦٦.

(١٥١) الديوان، ص: ٤١٤، وما بعدها.

(١٥٢) المصدر السابق، ص: ٤١٥.

(١٥٣) ينظر: د. فاضل فتحي والي، ص: ٣٨٨.

(١٥٤) الديوان، ص: ٤١٦.

(١٥٥) المصدر السابق، ص: ٤٨.

(١٥٦) المصدر السابق، ص: ٥٩٣، وينظر: قصائد أخرى ص: ١٣٦، ٥٩٥.

(١٥٧) المصدر السابق، ص: ٥٩٣.

(١٥٨) ينظر: أحمد علي عمر، ص: ٢٧٨-٢٧٩.

(١٥٩) ينظر: د. محمد مفتاح, من تقديمه لديوان ابن الخطيب، ص: ٧٨-٧٩.

(١٦٠) المصدر السابق، ص: ٢٤٥، وينظر: ص: ٣٢٠.

(١٦١) تكرر ذلك في القصيدة التي مدح فيها الغني بالله, ينظر: ص: ٣٩ من هذا البحث.

(١٦٢) الديوان، ص: ٣٨١.

(١٦٣) تنظر: القصيدة في المصدر السابق، ص: ٦٩٧-٧٠١.

(١٦٤) المصدر السابق، ص: ٧٠١.

(١٦٥) ينظر حول هذه الأحداث: ابن خلدون، ص: ٢٣٤، وما بعدها، ومحمد عبد الله عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ٤٧٨/٦.

(١٦٦) د. فاضل فتحي والي، ص: ٣٩٣.

(١٦٧) ينظر: الديوان، ص: ٥٤١-٥٤٢.

(١٦٨) ينظر: سعيد بن مسفر المالكي، ص: ١١٥.

(١٦٩) الديوان، ص: ٥٤٧.

(١٧٠) المصدر السابق, ص٥٤٧.

(١٧١) المصدر السابق, ص٥٤٧.

(١٧٢) د. أحمد الطريسي، شاعرية ابن الخطيب، مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة عبد الملك السعدي, تطوان, العدد ٢ (١٩٨٧م), ص: ٢٥١.

(١٧٣) د. نبيل خالد الخطيب، ص: ٢٧٨.

(١٧٤) سبقت الإشارة إلى هذا الطلب، ص: ٣٤، وغيرها.

(١٧٥) أحمد بن محمد المقري التلمساني، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق: د. إحسان عباس، دار صادر، بيروت (١٤٠٨هـ-١٩٨٨م)، ٢٠/٦.

(١٧٦) الديوان، ص: ٤٧٤.

(١٧٧) د. عدي الحربش، سلسلة تغريدات.

(١٧٨) ينظر: الديوان، ص: ٧٢٢.

(١٧٩) لذلك وصفها بعض الباحثين بأن بها مسحة شرقية؛ لما فيها من تعدد الأغراض، ينظر: (د. فاضل فتحي والي، ص: ٣٩٦)، كما قال راويها عنها إن ابن الخطيب حذا فيها حذو أبي تمام في قصيدته التي أولها:

أقشيب ربعهم أراك دريسا تقري ضيوفك لوعة ورسيسا

ينظر: (أحمد بن محمد المقري التلمساني، ٢٠١/٦).

(١٨٠) الديوان، ص: ٧٢٨.

(١٨١) ينظر: د. محمد مفتاح, من تقديمه لديوان ابن الخطيب، ص: ٧٦، وسعيد بن مسفر المالكي، ص: ٦٠.

(١٨٢) سبق مناقشة هذا الرأي والرد عليه في المبحث الخاص بالاحتماء السياسي.

(١٨٣) الديوان، ص: ٦٠٧.

(١٨٤) ينظر مثلا: المصدر السابق، ص: ٤٨٩-٥٦٧.

(١٨٥) سعيد بن مسفر المالكي، ص: ١٢٢.

(١٨٦) ينظر مثلا: الديوان، ص: ٩٧، ٣٥٩.

(١٨٧) ينظر مثلا: المصدر السابق، ص: ٣٤٤، ٦٠٢.

(١٨٨) المصدر السابق، ص: ٧٠٨، وينظر: ص: ٧٤٧.

(١٨٩) المصدر السابق، ص: ٥١٧.

(١٩٠) المصدر السابق، ص: ٣٨٧، وينظر: ص: ١٤٧،٥١٠.

(١٩١) نفاضة الجراب في علالة الاغتراب، تحقيق: د. أحمد مختار العبادي، دار الكاتب العربي، القاهرة، ٢/ ١٩٤.

(١٩٢) سورة يونس، الآية ٨٠,.

(١٩٣) سعيد بن مسفر المالكي، ص: ١٢٣.

(١٩٤) ينظر: د. محمد مفتاح، من تقديمه لديوان ابن الخطيب، ص: ٧٥.

(١٩٥) ينظر: د. فاضل فتحي والي، ص: ٤٠٣.

(١٩٦) ينظر حول ذلك: أحمد علي عمر، ص: ٢٠٥، وما بعدها، و٢٥٢، ود. عبد الهادي التازي، لماذا عيد المولد في الغرب الإسلامي؟ الأسباب التي كانت وراء إنشائه، مجلة دعوة الحق المغربية، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، العدد ٢٢٧ (١٤١٠هـ-١٩٨٩م)، ود. محمد عبد العزيز عبد الحميد، المديح النبوي في شعر لسان الدين بن الخطيب دراسة في المضمون وأدوات التشكيل، مجلة كلية اللغة العربية بالمنصورة، المجلد ٢، العدد ٣٢ (٢٠١٣م)، ص: ١١٢.

(١٩٧) هناك دراسات كثيرة اهتمت بهذا الفن في شعر ابن الخطيب، ينظر مثلا: (أحمد علي عمر، ص: ٢١٦، وما بعدها، ود. محمد عبد العزيز عبد الحميد، ص: ١١٣، وما بعدها، ود. محمد مفتاح، من تقديمه لديوان ابن الخطيب، ص: ٤٤).

(١٩٨) ينظر: د. محمد عويد الطربولي، المكان في الشعر الأندلسي من عصر المرابطين حتى نهاية الحكم العربي، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة, الطبعة الأولى (١٤٢٥هـ)، ص: ١٩١.

(١٩٩) أحمد علي عمر، ص: ٢٥٢.

(٢٠٠) الديوان، ص: ٢٥٠، وما بعدها.

(٢٠١) المصدر السابق، ص: ٢٥١.

(٢٠٢) المصدر السابق، ص: ٢٥١.

(٢٠٣) المصدر السابق، ص: ٢٥٤.

(٢٠٤) المصدر السابق، ص: ٢٥٤-٢٥٥.

(٢٠٥) المصدر السابق، ص: ٢٥٧.

(٢٠٦) المصدر السابق، ص: ٢٥٨.

(٢٠٧) د. أحمد الطريسي، ص: ٢٥٢.

(٢٠٨) فاطمة طحطح، الغربة والحنين في الشعر الأندلسي قراءة أولية، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، الطبعة الأولى (١٩٩٣م)، ص: ٣٣٢.

(٢٠٩) الديوان، ص: ١٥٧.

(٢١٠) فاطمة طحطح، ص: ٣٢٥.

(٢١١) الديوان، ص: ١٥٧.

(٢١٢) المصدر السابق، ص: ١٥٩.

(٢١٣) المصدر السابق، ص: ٣٤٨.

(٢١٤) ينظر: د. محمد عبد العزيز عبد الحميد، ص: ١٦٤.

(٢١٥) الديوان، ص: ٥٤٩-٥٥٠.

(٢١٦) حول الاتجاه الصوفي عند ابن الخطيب، ينظر: سعيد بن مسفر المالكي، ص: ٣٧، وما بعدها، وأحمد علي عمر، ص: ٢١٩.

(٢١٧) ينظر: أحمد علي عمر، ص: ٢٢١.

(٢١٨) ينظر: د. محمد عبد العزيز عبد الحميد، ص: ١٥٩.

(٢١٩) الديوان، ص: ٣٤٧.

(٢٢٠) المصدر السابق، ص: ٣٤٧.

(٢٢١) المصدر السابق، ص: ٣٤٩.

(٢٢٢) المصدر السابق, ص: ٣٤٩-٣٥٠.

(٢٢٣) فاطمة طحطح، ص: ٣٣٤.

(٢٢٤) ينظر: د. محمد عبد العزيز عبد الحميد، ص: ١٢٠، وما بعدها.

(٢٢٥) د. يوسف عيد، ص: ٤٣، وينظر: د. محمد عويد الطربولي، ص: ٢٩٥.

(٢٢٦) وهذه السمة ليست خاصة بالحنين في المدائح النبوية فحسب؛ بل في كل شعر الحنين لديه؛ في في مقدمات قصائد المديح وغيرها، ينظر حول مقدماته الطللية ورمزيات الحنين في شعره: (فاطمة طحطح، ص: ٣١٧، وما بعدها).

(٢٢٧) ينظر: د. أحمد الطريسي، ص ٢٥٣.

(٢٢٨) الديوان، ص: ٣٤٦.

(٢٢٩) المصدر السابق، ص: ٥٤٩.

(٢٣٠) المصدر السابق, ص: ١٥٨.

(٢٣١) د. أحمد الطريسي، ص: ٢٥٥.

(٢٣٢) فاطمة طحطح، ص: ٣٣٣.

(٢٣٣) د. قاسم الحسيني، ص: ١٣٢.

(٢٣٤) بعض أشعار ابن الخطيب كانت استجابة لرغبات الحكام في أغراض متعددة، وهو الأمر الذي يصرح به في تقديم بعض أشعاره، وحول ذلك ينظر: (د. فاروق اسليم، ص: ٦٨، وما بعدها، ومحمد زمامة، ص: ٧٨).

(٢٣٥) ينظر: د. محمود علي مكي، المدائح النبوية, الشركة المصرية العالمية, الجيزة, الطبعة الأولى (١٩٩١م), ص: ١٢٥، وما بعدها، ود. عبد الهادي التازي.

(٢٣٦) ينظر: أحمد علي عمر، ص: ٢١٢، ود. محمد عبد العزيز عبد الحميد، ص: ١٤٠.

(٢٣٧) ينظر: د. محمود علي مكي، ص: ١٢٨-١٢٩.

(٢٣٨) ينظر: أحمد علي عمر، ص: ٢٧٥.

(٢٣٩) الديوان، ص: ١٥٩.

(٢٤٠) أحمد علي عمر، ص: ٢٧٥.

(٢٤١) الديوان، ص: ٥٤٩، وينظر: ص: ٢٥٣, ٣٤٨.

(٢٤٢) المصدر السابق، ص: ٥٥١.

(٢٤٣) عبد العزيز عبد الله، ص: ١٤.

المصادر والمراجع

أولاً: المصادر:

١- ابن خلدون. التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا. منشورات دار الكتاب اللبناني. ١٩٧٩م

٢- أبو العباس أحمد بن خالد الناصري. الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى. تحقيق: جعفر الناصري. ومحمد الناصري. دار الكتاب. الدار البيضاء. ١٤١٨هـ-١٩٩٧م. الجزء ٤.

٣- أحمد بن محمد المقري التلمساني. نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب. تحقيق: د. إحسان عباس. دار صادر. بيروت. ١٤٠٨هـ-١٩٨٨م. الجزء ٦.

٤- السكري روايته عن أبي جعفر محمد بن حبيب. شعر الأخطل أبي مالك غياث بن غوث التغلبي. تحقيق: د. فخر الدين قباوة. دار الفكر. بيروت. الطبعة الرابعة. ١٤١٦هـ-١٩٩٦م.

٥- لسان الدين بن الخطيب. أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام وما يتعلق بذلك من الكلام. تحقيق: سيد كسروي حسن. دار الكتب العلمية. بيروت. الطبعة الأولى. ١٤٢٤هـ-٢٠٠٢م. الجزء ٢.

٦- لسان الدين بن الخطيب. الإحاطة في أخبار غرناطة. تحقيق: محمد عبد الله عنان. مكتبة الخانجي. القاهرة. الطبعة الثانية. ١٣٩٣هـ-١٩٧٣م. الجزء ١/٤.

٧- لسان الدين بن الخطيب. الديوان. صنعة وتحقيق وتقديم: د. محمد المفتاح. دار الثقافة. الدار البيضاء. الطبعة الأولى. ١٤٠٩هـ.

٨- لسان الدين بن الخطيب. نفاضة الجراب في علالة الاغتراب. تحقيق: د. أحمد مختار العبادي. دار الكاتب العربي. القاهرة. الجزء ٢.

ثانيًا: المراجع:

١- د. سعد إسماعيل شلبي. البيئة الأندلسية وأثرها في الشعر عصر ملوك الطوائف. دار نهضة مصر. القاهرة، ١٩٧٨م.

٢- عبد العزيز بن عبد الله. الفلسفة والأخلاق عند ابن الخطيب. دار الغرب الإسلامي. بيروت. الطبعة الثانية. ١٤٠٣هـ-١٩٨٣م.

٣- د. عبد الله بن علي ثقفان. الشكوى من العلة في أدب الأندلسيين. مكتبة التوبة. الرياض. الطبعة الأولى. ١٤١٧هـ-١٩٩٦م.

٤- د. فاضل فتحي والي. الفتن والنكبات الخاصة وأثرها في الشعر الأندلسي. دار الأندلس. حائل. الطبعة الأولى. ١٤١٧هـ-١٩٩٦م.

٥- فاطمة طحطح. الغربة والحنين في الشعر الأندلسي قراءة أولية. مطبعة النجاح الجديدة. الدار البيضاء. الطبعة الأولى. ١٩٩٣م.
٦- د. قاسم الحسيني. الرؤية النقدية في الإبداع الشعري الأندلسي (قراءة في المكونات). دار أبي الرقراق. الرباط. الطبعة الأولى. ٢٠١٦م.
٧- د. لؤي علي خليل. الدهر في الشعر الأندلسي دراسة في حركة المعنى، هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث. دار الكتب الوطنية. الطبعة الأولى. ٢٠١٠م.
٨- د. محمد رزوق. الأندلسيون وهجراتهم إلى المغرب خلال القرنين ١٦-١٧. أفريقيا الشرق. الدار البيضاء.
٩- محمد عبد الله عنان. دولة الإسلام في الأندلس. مكتبة الخانجي. القاهرة. الطبعة الرابعة. ١٤١٧هـ-١٩٩٧م. الجزء ٦/٤.
١٠- د. محمد عويد الطربولي. المكان في الشعر الأندلسي من عصر المرابطين حتى نهاية الحكم العربي. مكتبة الثقافة الدينية. القاهرة. الطبعة الأولى. ١٤٢٥هـ.
١١- د. محمود علي مكي. المدائح النبوية. الشركة المصرية العالمية. الجيزة. الطبعة الأولى. ١٩٩١م.
١٢- د. نبيل خالد الخطيب. لسان الدين بن الخطيب ٧١٣-٧٧٦ه/١٣١٣-١٣٧٤م نثره وشعره وثقافته في إطار عصره. دار النهضة العربية. بيروت. الطبعة الأولى. ١٤٣٤هـ-٢٠١٣م.
١٣- د. يوسف عيد. أصوات الهزيمة في الشعر الأندلسي. دار الفكر اللبناني. بيروت. الطبعة الأولى. ١٤١٤هـ-١٩٩٣م.

ثالثًا: الرسائل الجامعية والبحوث المنشورة:

١- أحمد علي عمر. المؤثرات الإسلامية في أدب لسان الدين بن الخطيب ٧١٣-٧٧٦هـ. رسالة دكتوراه. كلية الدراسات العليا. جامعة أم درمان الإسلامية. ٢٠١٧م.
٢- سعيد بن مسفر المالكي. المدحة في شعر لسان الدين بن الخطيب الغرناطي (ت٧٧٦هـ): البعد والتشكيل. رسالة ماجستير. كلية اللغة العربية. جامعة أم القرى. ٢٠١٧م.
٣- قديري جميلة. الفناء الصوفي في الأدب الأندلسي. مقاربة تأويلية - في نماذج من الفتوحات المكية- تحت مشروع الأدب الأندلسي في ضوء المناهج النقدية المعاصرة. رسالة ماجستير. كلية الآداب واللغات والفنون. جامعة وهران. ٢٠٠٩-٢٠١٠م.

رابعًا: المقالات:

١- د. أحمد الطريسي. شاعرية ابن الخطيب. مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية. جامعة عبد الملك السعدي. تطوان. العدد ٢. ١٩٨٧م.

٢- د. أحمد مختار العبادي. لسان الدين بن الخطيب وكتاباته التاريخية. عالم الفكر. المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب. المجلد ١٦. العدد ٢. ١٩٨٥م.

٣- د. رابح عبد الله المغراوي. ابن الخطيب الأندلسي من الانقلاب إلى الاغتيال (٧٦٠هـ-٧٧٦هـ) (١٣٥٩م-١٣٧٤م). مجلس النشر العلمي. جامعة الكويت. الحولية ٢٦. الرسالة ٢٤٧. ١٤٢٧هـ-٢٠٠٦م.

٤- د. عبد الهادي التازي. لماذا عيد المولد في الغرب الإسلامي؟ الأسباب التي كانت وراء إنشائه. مجلة دعوة الحق المغربية. وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية. العدد ٢٢٧. ١٤١٠هـ-١٩٨٩م.

٥- د. فاروق اسليم. مفهوم الشعر وبواعثه في ديوان لسان الدين بن الخطيب. مجلة جامعة دمشق. المجلد ٢٣. العدد ٢. ٢٠٠٧م.

٦- فاغية السعدية. شخصية ابن الخطيب من خلال كتابه نفاضة الجراب في علالة الاغتراب. مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية. جامعة عبد الملك السعدي. العدد ٢. ١٩٨٧م.

٧- محمد زمامة. متى وأين تصوف ابن الخطيب؟ مجلة المعهد المصري للدراسات الإسلامية. مدريد. المجلد ٢٨. ١٩٩٦م.

٨- د. محمد عبد العزيز عبد الحميد. المديح النبوي في شعر لسان الدين بن الخطيب دراسة في المضمون وأدوات التشكيل. مجلة كلية اللغة العربية بالمنصورة. المجلد ٢. العدد ٣٢. ٢٠١٣م.

٩- د. منور محمد الحربي. جمالية اللون الأبيض في شعر لسان الدين بن الخطيب. المجلة الأردنية في اللغة العربية وآدابها. المجلد ١٥. العدد ١. ٢٠١٩م.

خامسًا: تويتر

١- د. عدي الحربش. سلسلة تغريدات.